من أسرار النظم في سورة القمر

د. فائزة بنت سالم صالح أحمد
معهد اللغة العربية لغير الناطقين بها
جامعة أم القرى بمكة المكرمة

من أسرار النظم في سورة القمر

د. فائزة بنت سالم صالح أحمد
معهد اللغة العربية لغير الناطقين بها
جامعة أم القرى بمكة المكرمة

ملخص البحث:

إن هذا البحث يتحدث عن أسرار النظم في سورة القمر، والبحث يقوم على التحليل البلاغي التذوقي لكل آيات السورة، لبيان سمات السورة، وهي سورة بنيت آياتها على روي واحد وهو حرف الراء، وتتميز آياتها بقصرها وسرعة إيقاعها. وقد بدأت البحث بمقدمة تبين أهمية النظر إلى السورة كوحدة متكاملة والكشف عما تميزت به السورة، ثم تمهيد تحدثت فيه عن سبب نزول السورة ومناسبتها لما قبلها وما بعدها من سور القرآن وعدد آياتها، ثم تناولت آياتها بالتحليل البلاغي على حسب موضوعاتها ناظرة إلى بناء الكلمة، وفيوضات المعاني التي توحي بها وبناء الجملة وعلاقة آياتها بعضها ببعض، وكشفت عن الخيط الذي يجمع بين كل آيات السورة، وتناولت الصور البيانية وبينت سر جمالها وقابلتها بما يشبهها من القرآن الكريم، ثم تحدثت عن النسق الصوتي وتميزه، ثم ختمت البحث بخاتمة بينت فيها أهم سمات السورة ونتائج البحث.

المقدمة :

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً، والصلاة والسلام على المبلغ عن ربه، نبينا محمد المبعوث رحمة للعالمين.

اللهم إنا نعوذ بك من الزلل ومن فضول القول، ومن التكلف في العمل، وبعد.

فإن القرآن الكريم كله معجز ، وكما يكون في الجملة القرآنية يكون في السورة كاملة، حيث يتحقق فيها التكامل من حيث الموضوع والهدف والسياق، فهي كالبناء المؤلف من عناصر يكمل بعضه بعضاً، وحين ينزع عنصر من عناصر البناء تذهب بلاغته، وقد تكررت في القرآن الكريم كثير من المعاني كذكر الآخرة وأحوال المؤمنين والكافرين وأحوال الأمم المكذبة إلا أن وجودها في كل سورة يجعل لها نظما خاصا يختص بالسورة ، فكل سورة من سور القرآن تدور حول معنى واحد ومحور يتغلغل في كل آيات السورة ويكون جامعا لآياتها ، ويكون كذلك في الشعر فموضوعات الشعر تتكرر لكن دراسة الموضوع في القصيدة الواحدة تبرز لنا خصائصها المتفردة التي تميزها عن غيرها

ونحن في هذه الدراسة سنقف أمام سورة القمر لنبين خصائصها البلاغية المتفردة،وقد كنت دائما منذ صغري أقف عند هذه السورة وأعجب بما فيها من إيقاع سريع وقصر في الآيات وكنت أشعر بقرع فواصلها يرن في أذني ، ولما استوى عودي في علم البلاغة وقفت ثانية أمام هذه السورة أقلب بصري وذهني في آياتها وأتأملها مرة بعد مرة فرأيت أن أكتب دراسة عنها.

وهناك دراسة موسعة عن سورة القمر للدكتور عوض الجميعي بعنوان " خصائص النظم في سورة القمر " وهي دراسة قامت على وضع كل آية من آيات السورة تحت بابها في علم البلاغة بعد تعريف المصطلح البلاغي ،مفرقا آيات السورة على تلك الأبواب ، ودراستي للسورة ستكون دراسة بلاغية تحليلية تذوقية للسورة كاملة حسب ترتيب آياتها ، هادفة إلى بيان كيفية توالي الموضوعات وترابطها ونسقها في السورة .

إن سورة القمر سورة مبنية على الإيجاز والإيقاع السريع وقصر الآيات، كما أنها من أطول السور التي التزمت بحرف روي واحد وهو حرف الراء، حيث تبلغ آياتها_خمسا وخمسون آية، والفواصل في سور القرآن إما متماثلة أو متقاربة أو متفردة، والمتماثلة هي

التي تماثل حرف رويها، وقد استقلت هذه الفواصل بإحدى عشرة سورة في القرآن، كلها من سور المفصل، وهي:

١- أربع سور التزمت بروي الراء، وهي: القمر، القدر، العصر، الكوثر.

٢- سورتان التزمتا بروي الألف المقصورة، وهي: الأعلى والليل.

٣- سورة واحدة التزمت بالألف الممدودة بعدها الضمير، وهي الشمس، والدال في سورة الإخلاص، والسين في سورة الناس، والمنافقين حرف النون، والفيل حرف اللام.

* * *

التمهيد:

إن سورة القمر من أطول السور التي التزمت بحرف الراء، وترتيبها في النزول السابعة والثلاثون، وهي مكية باتفاق المفسرين، وكان نزولها في حدود سنة خمس قبل الهجرة[1].

وسبب نزولها أن المشركين قالوا للرسول ﷺ: إن كنت صادقاً فشق لنا القمر فرقتين فنؤمن لك، فلما كانت ليلة بدر سأل الرسول ﷺ ربه، فانشق القمر نصف على الصفا، والآخر على قيقعان، فقال الكفار: آية سماوية لا يعمل فيها السحر، ولننظر أهل البوادي فإن أخبروا بانشقاقه فهو صحيح، فلما جاء أهل البوادي وأخبروا عن رؤيتهم القمر منشقاً، قالوا: سحر مستمر[2].

وقد اكتشف علماء الفضاء حديثاً أن في القمر علامات تدل على أنه انفلق في يوم من الأيام، ثم التحم ثانية. فسبحان الله رب العالمين.

صلة السورة بما قبلها وما بعدها:

جاءت سورة القمر في ترتيب المصحف بين سورة النجم وسورة الرحمن، وبيان العلاقات بين المعاني مما يعتبره بعض العلماء وجهاً من أوجه الإعجاز القرآني بجانب إعجازه بالنظم، يقول الفخر الرازي بعد أن انتهى من تفسير سورة البقرة التي كان حريصا عند تفسيرها على بيان أوجه المناسبات بين آياتها: (ومن تأمل في لطائف نظم هذه السورة، وفي بدائع ترتيبها علم أن القرآن كما أنه معجز بحسب فصاحة اللفظ، وشرف معانيه فهو أيضاً معجز بحسب ترتيبه ونظم آياته)[3]، وسمى الباقلاني العلاقات بين المعاني في القرآن (تأليف المختلف).

وسورة النجم تحدثت عن إثبات نبوته ﷺ، ثم ختمت بذكر أحوال يوم القيامة، واستهزاء الكفار بالقرآن ﴿أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ ۝ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ۝ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ﴾، و﴿أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ﴾ هي نفسها﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ ومعنى أزفت أي دنت واقتربت القيامة، وأزف فيها معنى ضيق وقتها[4]، وهذا يناسب قول﴿ٱقْتَرَبَتِ﴾ كما أن بين النجم والقمر تناسب فكلاهما في السماء من الأفلاك.

كذلك لما قال تعالى في أواخر سورة النجم:﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ۝ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ

---

(١) انظر: التحرير والتنوير (١٦٦/٢٧)، البحر المحيط (١٧٢/٨).

(٢) انظر: التحرير والتنوير (١٦٦/٢٧)، البحر المحيط (١٧٢/٨).

(٣) التفسير الكبير (١٣٩/٧).

(٤) انظر: المفردات في غريب القرآن ص(١٧).

﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴾ فصّل إهلاك هذه الأمم في سورة القمر بنظم أبدع وأبلغ[1].

ثم يظهر التناسب أيضاً بين سورة القمر وسورة الرحمن، فقد ختمت سورة القمر بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ ، ثم جاءت سورة الرحمن تفسير للمليك المقتدر، فهو ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ۝ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾.

موضوعات السورة:

دارت السورة حول التكذيب، وتحدثت عنه من أربعة محاور:

- الأول: عرض الحدث بعظمته، وموقف المشركين فيه.
- الثاني: الرد عليهم، وذلك بتذكيرهم وتهديدهم بأحوال القيامة.
- الثالث: عرض قصص الأقوام المكذبة للرسل.
- الرابع: العودة لخطاب أهل مكة وتهديدهم.

وترتبط هذه الموضوعات ارتباطا يفضي كل مقصد إلى الآخر، وتقوم فيها علاقات معنوية، ووشائج لغوية .

النظم البلاغي لآيات السورة:

سميت السورة بسورة القمر، لأنها أخبرت عن معجزة انشقاق القمر في أول آية فيها، قال تعالى:﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴾ [2]، وقد بُني المعنى على جملتين: اقتراب الساعة، وانشقاق القمر، ولم يقل: انشق القمر، واقتربت الساعة، إنما بدأ باقتراب الساعة، وربطها بانشقاق القمر، وذلك للتخويف بأمرها، وفي اقتراب غير ما في قرب، لأن الاقتراب على وزن افتعال يعني الاعتمال، وكأن الساعة تمشي قليلاً قليلاً حتى أوشكت أن تصل، وفيها مزيد تخويف، وإشعار برهبة حصولها. وفي سورة الأنبياء:﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ [3]، وقال تعالى في السورة نفسها: ﴿ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ [4]، وفي هذا التجسيد مزيد تخويف وإيقاظ للغافلين عنها، وسورة القمر نزلت قبل سورة الأنبياء.

---

(١) انظر: روح المعاني (٢٧/٧٤)، البحر المحيط (٨/١٦٦).

(٢) القمر:آية (١).

(٣) الأنبياء: آية (١).

(٤) الأنبياء: آية (٩٧).

وعطف على اقتراب الساعة إنشقاق القمر، وهي معجزة حصلت حقيقة برواية الصحابة، وبعض المعجزات التي جرت على يد رسول الله ﷺ ذكرت في القرآن، والبعض الآخر ذكرت في السنة كنبع الماء بين يديه، وحنين الجذع، ولما كانت معجزة انشقاق القمر من المعجزات العظيمة ذكرت في القرآن، واقترنت بشيء عظيم وهو اقتراب الساعة.

وانشق على وزن انفعل أي حصل منه الانشقاق بقدرة الله، وفي إسناد الفعل للقمر تجسيد لهذا الحدث بعد وقوعه، وبيان أهميته وأنه قد وقع، فالسورة سجلت الحدث بعد وقوعه، وربط القمر بالقيامة؛ لأن في كليهما تحول لبعض آيات الكون العظيمة، فبينه وبين القيامة مناسبة التحول والتغيير، ثم بينت الآيات موقفهم من هذا الحدث العظيم: ﴿ وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً يُعْرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾[1]، فالآية بينت موقفهم ووصفت حالهم بعد تلقي الآيات وصفاً دقيقاً بأسلوب الشرط الذي بين أن هذا هو ديدنهم، وما اعتادوا عليه، فهم يروا، يعرضوا، يقولوا، وجاء بالمضارع للدلالة على أن حالهم في الاستقبال كمثل حالهم في الماضي، كما أن المضارع يصور حالة تجديد التكذيب التي هم عليها، فما أن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر، وأن هذا ديدنهم ودأبهم، وفي ذلك اتهامهم في عقولهم التي لا تفكر.

وفي تنكير ﴿ ءَايَةً ﴾ دلالة على العموم، لمجيئها على الشرط، والنكرة في سياق الشرط تفيد العموم، فهم يعرضون عن كل آية جاء بها هذا النبي، ثم إنهم حين يعرضون يقولون ﴿ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ ، فوصفوا الآية بأنها سحر، سحر بها محمد أعينهم، ووصفوا السحر بأنه ﴿ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ ، ومستمر لها معنيان: إما أن تكون الكلمة مشتقة من الفعل (مرَّ) وهو مجاز في الزوال، والسين والتاء لتقوية الفعل، أي لا يبقى القمر منشقاً، أو تكون الكلمة مشتقة من (المِرة) بكسر الميم أي القوة والتمكن، والسين والتاء للطلب، والمعنى أنه سحر معروف منه متكرر قوي[2]، واتساع معنى الكلمة وتنوعها؛ دلالة على ثراء الكلمات القرآنية في معانيها.

ثم يعطف على هذه الآية ﴿ وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً يُعْرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ آية ﴿ وَكَذَّبُواْ

---

(١) القمر: آية (٢).

(٢) انظر: التحرير والتنوير (١٧٢/٢٧).

﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَكُلُّ أَمۡرٖ مُّسۡتَقِرّٞ﴾ [1] بالواو؛ للدلالة على أن الإعراض غير التكذيب، ولو لم تعطف لكان الإعراض هو التكذيب، وفي ذلك بيان لشناعة أمرهم فهم يعرضوا ويكذبوا بالقول، فالواو تفيد عطف جملة على جملة، أي أنهم جمعوا بين الإعراض والتكذيب، وآية ﴿وَكَذَّبُواْ .....﴾ تتكون من جملتين، جملة ﴿وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾، وجملة التذييل ﴿وَكُلُّ أَمۡرٖ مُّسۡتَقِرّٞ﴾، وهذه الآية هي النسيج اللغوي التي قامت عليها السورة، فهي كقطب الرحى التي تدور حولها كل معاني السورة؛ حيث نجد في كل قصة بعد ذلك هذه الوشيجة: كذبوا، ثم كذبت.. كذبت..، وهذه الآية تصور موقف الكفار في الماضي، وأن التكذيب هذا كما أنه هو في الحال كذلك كان في الماضي، وكيف أنه متغلغل في نشاز البشر منذ أن خلق الله الأرض وأرسل الرسل، وعلة التكذيب هو اتباع الهوى؛ لذلك قال ﴿وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾ فهذه الواو من قبيل عطف العلة على المعلول.

وفي جمع الأهواء إشارة إلى أن أهواءهم متعددة من حيث حب الرئاسة، وحسد الأنبياء على ما آتاهم، والاستكبار، ومحبة الأصنام، وغيرها، فالتكذيب ناتج عن اتباع أهواء النفس التي لا حصر لها، وكم من هوى نفس يردي بصاحبها المهالك.

وتأتي جملة ﴿وَكُلُّ أَمۡرٖ مُّسۡتَقِرّٞ﴾ تذييلاً للجملتين المتقابلتين اللتين ذكرتا تكذيبهم في الحال والماضي، وجملة ﴿وَكُلُّ أَمۡرٖ مُّسۡتَقِرّٞ﴾ تعلن حكمة إلهية أجراها الله في هذا الكون، وهي تعادل ﴿لِّكُلِّ نَبَإٖ مُّسۡتَقَرّٞ﴾ [2] في سورة الأنعام، وآية القمر جاءت في سياق تهديد المكذبين، أما في الأنعام فقد جاءت بعد ذكر قدرته وتصرفه في خلقه؛ ولذلك ذكر (النبأ)، والنبأ هو الخبر ذو الفائدة العظيمة، أما (الأمر) فهو يعم الأمور ذوات التأثير، والتي يستجيب لها العقل كآية القمر[3]، ومثل هذه الجملة القصيرة تجري مجرى المثل، وهي كثيرة في القرآن مثل قوله تعالى: ﴿... إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا﴾ [4].

وقد جاءت جملة ﴿وَكُلُّ أَمۡرٖ مُّسۡتَقِرّٞ﴾ على هذا النحو من الاختصار المبهر، وقيمتها في أن أسندت كل إلى أمر فأفاد العموم، ثم في إسناد الاستقرار لكل أمر؛ فقيمة اللفظ في صلته بما قبله، كما أن مزية هذه الجملة تعود إلى أنها صادرة من رب العالمين الذي يعلم ما

---

(١) القمر: آية (٣).

(٢) آية (٦٧).

(٣) انظر: التحرير والتنوير (١٧٣/٢٧).

(٤) الإسراء: آية (٨١).

كان وما سيكون، ثم إن الكلام تمثيل حيث شبهت حالة ترد الأمر بين الظهور والخفاء إلى أن يتمكن بحال سير السائر إلى المكان المطلوب في مختلف الطرق بين بعد وقرب إلى أن يستقر في المكان المطلوب، كما أن فيها استعارة تمثيلية مكنية؛ لأن المشبه به محذوف، ورمز له بذكر شيء من روادف معناه وهو وصف مستقر[1]. فقد شبه الأمر في حالة ظهوره وخفائه بإنسان يتردد في أمرين حتى حصل له الاستقرار ثم حذف الإنسان وتركت صفته وهي مستقر، وهذه هي قرينة المكنية

وفي هذه الجملة المختصرة فيوضات من المعاني، وقد أفاض المفسرون في تفسير هذا المستقر فقالوا: ما كان في الدنيا فسيظهر، وما كان في الآخرة فسيعرف، ومن معانيها: أن الخير يستقر بأهل الخير، والشر بأهل الشر، وأن الحق يستقر ظاهراً ثابتاً والباطل زاهقاً ذاهباً، وأن كل أمر يستقر على خذلان أو نصرة في الدنيا وسعادة أو شقاوة في الآخرة.

وفي هذه الآية تعريض بأن دعوته ﷺ سوف تظهر ويرسخ أمرها، كما أن فيها تأنيساً للرسول ﷺ، وتسلية له لما يجده من تكذيبهم. ومستقر اسم فاعل من (قَرَّ)، والسين والتاء للمبالغة، أي سيكون لهذا الأمر استقرار كامل تام.

ونلاحظ التناغم والتلاؤم الصوتي بين كل من سحر مستمر- أمر مستقر، فبين سحر وأمر تناسب، وبين مستمر ومستقر تناسب في الوزن الصوتي وتجانس في اللفظين، وهذا يتناسب مع الأمر الذي عرضت له السورة من إعراض المشركين عن معجزة ليس فيها مجال للشك.

ثم يقيم الله عليهم الحجج في تكذيبهم، فقد جاءتهم أنباء السابقين لتذكيرهم لكنهم لم يستجيبوا قال تعالى:﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴾ [2]، فالإخبار بشأن الأمم المهلكة قد جاءتهم، وسماها القرآن (أنباء)، والنبأ هو الخبر المهم الذي له شأن عظيم، و(من) تفيد التبعيض، وفي القرآن أخبار كثيرة منها ما فيه عبرة وعظة.

وفي قوله تعالى: ﴿ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴾ جعل الازدجار مظروفاً فيه مجاز؛ للمبالغة في ملازمته له على طريقة التجريد، فكأن الأنباء ظرف في داخله الازدجار، والتجريد هو أن ينتزع من أمر

---

(١) انظر: التحرير والتنوير (١٧٣/٢٧).

(٢) القمر:آية (٤-٥). ٢ - انظر معجم البلاغة العربية، د / بدوي طبانه، ص ١٢٤

ذي صفة أمرا أخر مثله مبالغة في كماله (٢) فقد بلغت الأنباء حدا من الازدجار صح معها أن نستخلص منها ازدجارا أخر

(مزدجر) مصدر ميمي مصاغ بصيغة اسم المفعول من الفعل (زجر)، وازدجر على وزن افتعل، وفيه مبالغة فالقصص ليس زجراً وإنما ازدجار، فهي موعظة بلغت غايتها، فلابد أن يتعظوا ة ويؤمنوا بعد أن عاينوا تلك الأنباء ووقفوا عليها، وفي تقديم الجار والمجرور الخبر على المبتدأ مزيد عناية بما في الازدجار.

ثم وصفت هذه الأنباء بأنها﴿ حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٞۖ فَمَا تُغۡنِ ٱلنُّذُرُ ﴾ قطع الكلام ثم استؤنف، فوصفت الأنباء بأنها حكمة بالغة، وحكمة خبر مبتدأ محذوف أي هي حكمة بالغة[١]، والحذف يأتي في الكلام لإيجاز العبارة، وتصفيتها ثم بنائها على إثارة الحس والفكر. يقول عنه عبد القاهر الجرجاني: (هو باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر)[٢]، وأجمله ما يقوم الحذف على القطع والاستئناف، أي يذكر الشيء ثم يقطع ثم يستأنف الحديث عنه.

والحذف في الآية فيه تفخيم لأمر هذه الأنباء التي أعرض عنها الناس ولم يستفيدوا منها، وهذا الحذف يناسب جريان السورة على الإيجاز والاختصار.

والحكمة: هي إصابة الحق بالعلم والعقل، والحكمة من الله معرفة الأشياء وإيجادها على غاية الإحكام[٣]، وهذه الأنباء التي أتى بها الله هي من الحق الذي يدرك بالعلم والعقل، ثم وصفت الحكمة بأنها بالغة، أي أن من طبعها أن تصل إلى كل قلب حتى تبلغ أقصاه، فهي تبلغ العقل، وتبلغ القلب، وتبلغ الفهم، ولذلك قال ابن عاشور: (بالغة أي واصلة إلى المقصود مفيدة لصاحبها)[٤]، وهذا يدل على أن الحكمة في غاية الإحكام، وعلى ذلك فلم تغير هذه الحكمة موقفهم، لذلك ذيلت بقوله تعالى:﴿ فَمَا تُغۡنِ ٱلنُّذُرُ ﴾ ، وعطفت بالفاء لترتيب عدم الإغناء على مجيء الحكمة البالغة، لأنها مظنة الإغناء، و(ما) هنا قد تكون نافية أو استفهامية، فإذا كانت نافية فمعناها لا تغني عنهم النذر بعد هذه الحكمة البليغة التي لم يؤمنوا بها استكباراً وعناداً، ويحتمل أن تكون استفهامية للإنكار، أي فماذا تفيد النذر في

---

(١) انظر: روح المعاني (٢٧/ ٧٩).

(٢) انظر: دلائل الإعجاز ص(١٤٦).

(٣) انظر: المفردات في غريب القرآن للأصفهاني (١٢٧).

(٤) انظر: التحرير والتنوير (٢٧/ ٧٩).

أمثالهم، وجاءت (تغني) دون أغنت بالمضارع لتصوير الحالة التي هم عليها من عدم الإقلاع عن ضلالهم وأنه مستمر مع كل موعظة يوعظون بها، والنذر جمع نذير، ويراد بها الأنبياء والرسل الذين يرسلهم الله إلى أقوامهم منذرين، أو قد يراد بالنذر كل ما أرسل إليهم من رسل ومواعظ وأنباء، واعتبار كلا المعنيين يعطي الآية ثراءً في المعنى وردع لكل معاند.

ونتأمل ما وراء ذلك من يأس في هدايتهم، ولذلك بنى على هذا الكلام أمر الرسول بالتولي عنهم قال تعالى: ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾[1]، وجاء الأمر موصولاً بهذه الفاء السببية مبني على ما قبله ﴿ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴾ أي أعرض عنهم بسبب عدم تأثرهم بالنذر، والرسول ﷺ هو من تلك النذر، فما دام أن النذر لم تنفعهم وأنت نذير فاتركهم وأعرض عنهم، وهكذا تكون المناسبة قائمة بين الآيتين، وفي ذلك تبرئة للرسول ﷺ عن تقصيره في التبليغ وتسلية له مما كان يكابده من الإلحاح في هداية الناس، فبعد أن جاء نص إغناء النذر وأنه لا ينفع فيهم تذكير ولا تبليغ، وأنهم صموا عن سماع الحق جاء الأمر بالتولي بالفاء السببية.

ويكثر مثل هذا الأسلوب في القرآن الكريم قال الله تعالى:﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴾[2]، ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا ﴾[3]، ولكن تأمل مجيئه في هذه السورة الموجزة تجده كلمتين﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾.

وبعد هذا الأمر تستأنف جملة وعيد، ووجه الصلة أن الأمر بالتولي مؤذن بغضب ووعيد، فذكرت أحوال يوم القيامة قال تعالى: ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ۘ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ۝ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾[4]، ونتأمل كيف تداخل الأمر بالتولي مع أحوال يوم القيامة، فهل التولي يكون يوم يدع الداع، لقد قدر بعض المفسرين محذوفاً في الكلام تقديره فتول عنهم إلى يوم ...[5] والتولي معناه الإعراض عنهم وعن مجادلتهم بعد مجيء الآيات ، وجملة "يوم يدعو الداع" جملة استئنافية ، وفي هذا الأمر براءة الرسول صلى الله عليه وسلم من حق التقصير في أداء الرسالة ،وتطمينه بأنه أدى الأمانة وهذا ما نفهمه من معنى المعنى

---

(١) سورة القمر:آية (٦).

(٢) سورة الذاريات:آية(٥٤).

(٣) سورة النجم:آية (٢٩).

(٤) سورة القمر: آية (٦-٨).

(٥) انظر: روح المعاني للألوسي (٢٧/ ٧٩)، البحر المحيط لأبي حيان (٨/ ١٧٤) ١٨٥).

وجاء ذكر يوم القيامة؛ لتخويف المعاندين المكذبين، وذكرت الآيات مشهداً من مشاهد يوم القيامة يصور الخوف والهلع الذي عليه الناس في ذلك اليوم، وهذا المشهد يتكون من خمسة عناصر: الأول: ﴿ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ﴾ والداع هو إسرافيل، وهذه الجملة مبهمة فيها من الخوف والرعب ما فيها، فقد نُكر يوم، ثم وصف بأن داعياً يدعو فيه، ولم يذكر من هو الداع، ثم إنه يدعوا إلى شيء نكر، ولم يذكر ما هو الشيء فهو مبهم لا تعرفه النفوس، ثم وصف الشيء بأنه نكر فزادها إبهاماً، ونُكر أي تنكره النفوس وتكرهه، وكلمة ﴿ نُّكُرٍ ﴾ من الكلمات النادرة في اللغة فهي صفة بضمتين، وهذا الوزن قليل في الصفات، فمنه قولهم (روض أُنُف) أي لم ترعه الماشية[1]، وفي نكر معنى الشدة وصعوبة الموقف، وهي أكثر تعبيراً من قولهم: (شيء منكر)، فتأمل هذه الكلمة وكيف جاءت لتصف أحداثاً نادرة لا تحدث إلا في ذلك اليوم.

ثم وصفت الآيات أحوال الناس في ذلك اليوم، وهو العنصر الثاني في المشهد فوصفت أبصارهم، لأن آثار الشيء يظهر أولا على العين فقال تعالى: ﴿ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ ﴾ ، وخشوع البصر خضوعه واستسلامه، وأنه لا يثبت على شيء، وهو كناية عن الذل والشدة.

ويكثر في القرآن ذكر أحوال البصر حين يبين مشاعر النفوس وأحوالها يوم القيامة قال تعالى: ﴿ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾[2]، ﴿ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝٨ أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ﴾[3]، ﴿ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ﴾[4]، وقد جمعت خشعاً في هذه الآية دون غيرها؛ وذلك لبيان توالي الهول وكثرته، وأنه ليس خشوعاً واحداً بل خشوعاً بعد خشوع، وهول فوق هول.

وتكتمل الصورة في العنصر الثالث حين تصور كيفية خروجهم من القبور ﴿ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴾[5]، جاء التشبيه ليبين الهيئة التي يخرجون بها من الأجداث، فالمشبه خروجهم من القبور، والمشبه به الجراد المنتشر في الكثرة والسرعة، والتموج والحركة، والجراد من طبعه ألا يمشي إلا في جماعات، وكأنها من بعيد قطعة واحدة، وذكر ابن عاشور أن معنى المنتشر المنبث على وجه الأرض، والمراد

---

(١) انظر: روح المعاني للألوسي (٢٧/٧٩).

(٢) سورة الأنبياء: آية (٩٧).

(٣) سورة النازعات: آية (٨-٩).

(٤) سورة القلم: آية (٤٣).

(٥) سورة القمر: آية (٧).

بها فراخ الجراد التي تظهر أجنحتها فتخرج من ثقب في الأرض، يزحف بعضه فوق بعض، وهذا يناسب ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا ﴾ [1] أي حال خروجهم بسرعة كهيئة الفراش متعاظلاً بعضه فوق بعض[2]، وهذا معنى جيد يصور الخوف والهلع الذي عليه الناس في ذلك اليوم يتدافعون ويتحركون ماضين إلى محشرهم من غير هدى.

وقد شبه الناس يوم القيامة في سورة القارعة بالفراش المبثوث قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴾ [3]، وفرق بين هذه الصورة والصورة في سورة القمر، فالفراش المبثوث يضرب مثلاً للخفة والتهافت هنا وهناك، ووصف الفراش بالمبثوث، لأن البث معناه التفريق وإثارة الشيء كبث الريح والتراب، فهو المهيج بعد سكون[4]، وهذه حال الفراش يطيش هنا وهناك، أما الانتشار فيكون فيما له تماسك من نشر الثوب والصحيفة[5]، وأرى أن الصورتين تكملان بعضها بعضاً، حيث تشبهان الناس في حالتين الأولى هم كالفراش حين يخرجون من قبورهم فزعين لا يهتدون إلى أين يتجهون، ثم يكونون كالجراد المنتشر إذا توجهوا إلى المحشر.

أما العنصر الرابع في الصورة فهو حين يصفهم بأنهم ﴿ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ﴾، والهطع في اللغة تصويب البصر والعنق نحو شيء ما[6]، وهي مشية المذعور الخائف، وناهيك عن خوف ذلك اليوم، ولنتأمل صورتهم وهم يمدون أعناقهم وأبصارهم في خوف وفزع جادين في السير إلى ما يدعو إليه الداع.

ويأتي العنصر الخامس ليكمل الصورة فيصف قولهم بعد أن ذكر هيئتهم ﴿ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾، وفي ذكر الفاعل دلالة على أن المؤمن يكون في أمن وسلام، أما الكافر فيقول هذا يوم عسر، وعبّر بعسر، لشدة الموقف حتى أنه لا يستطيع أن يتم الكلمة فيقول هذا يوم عسير، كما أن عسر فيها زيادة معنى العسر، وأسند العسر لليوم باعتبار كونه زمناً لأمور عسيرة شديدة.

---

(١) سورة المعارج: آية (٤٣).
(٢) انظر: التحرير والتنوير (٢٧/ ١٧٩).
(٣) سورة القارعة: آية (٤).
(٤) المفردات في غريب القرآن ص(٣٧).
(٥) المصدر السابق ص(٥٠).
(٦) المفردات ص(٥٢).

ينقطع الكلام هنا ليستأنف موضوعاً آخر في السورة.

فبعد أن تفرعت الآيات من ﴿ وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ ﴾ ؛ لتذكيرهم وتهديدهم، عاد الحديث لبيان تكذيب الأمم السابقة، فعطفت على (كذبوا) عطف القصة على القصة، فبدئت بقصة نوح مع قومه.

القصة الأولى: قصة قوم نوح عليه السلام:

قال تعالى: ﴿ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ فَكَذَّبُواْ عَبۡدَنَا وَقَالُواْ مَجۡنُونٞ وَٱزۡدُجِرَ ۝ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ ۝ فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ ۝ وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ ۝ وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ ۝ تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا جَزَآءٗ لِّمَن كَانَ كُفِرَ ۝ وَلَقَد تَّرَكۡنَٰهَآ ءَايَةٗ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ۝ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ﴾[1].

أول قصة عرضتها السورة قصة نوح، وقد بدئت بـ﴿ كَذَّبَتۡ ﴾ عطفاً على كذبوا، فكلمة (كذب) هي الخيط الذي يربط بين جزئيات معاني السورة، وهي المعنى الذي تدور حوله كل موضوعات السورة –وكما قلنا سابقاً– فلكل سورة من القرآن معنى تقوم عليه، وتلتف المعاني حوله، وقصة نوح هنا جاءت مختصرة موجزة ويختلف ورودها في القرآن طولاً وقصراً، وقد وردت قصة نوح في القرآن في تسع سور، وذكرت مفصلة في سورة هود وسورة نوح، بينما جاءت مختصرة في كل من سورة يونس والأنبياء والمؤمنين، في آيات عدة، وأشير إليها إشارة موجزة في كل من سورة الفرقان والشعراء والصافات والعنكبوت.

بدأت القصة بالجملة الخبرية ﴿ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ ﴾ ، ثم طوت القصة أحداثاً تبين كيفية دعوته التي ذكرت في بقية السورة، وفي قوله ﴿ قَبۡلَهُمۡ ﴾ إشارة إلى أن هذه الآيات هي عبرة لكفار قريش، وأنهم هم المخاطبون بها ليتعظوا، ثم قال تعالى: ﴿ فَكَذَّبُواْ عَبۡدَنَا ﴾ بهذه الفاء التي تفيد التعقيب، وهي تخفي وراءها أحداث تكذيبهم، ولو لم ترد الفاء لكانت (كذبوا) بياناً للتكذيب الأول، وذكر المفعول ﴿ عَبۡدَنَا ﴾ دون الضمير أو دون ذكر اسمه صراحة، دلالة على كمال عبوديته لله وتشريف له بأنه عبد لله، ثم ذكرت الآيات تكذيب قومه له ﴿ وَقَالُواْ مَجۡنُونٞ وَٱزۡدُجِرَ ﴾ كلمتان مختصرتان توافق نظم السورة الذي بني على السرعة والتركيز والإيجاز، وقد اتهموه بصفة يصف بها الكفار أنبياءهم عادة وهي الجنون.

---

(١) سورة القمر: آية (٩–١٧).

وإذا تأملنا أقوال قوم نوح في بقية السور نجدها تختلف وتتفاوت على حسب موضوع السورة، فمثلاً في سورة يونس ذكر تكذيبهم إجمالاً ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ﴾[1]، وفي الشعراء ﴿قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ [2]،﴿قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾[3]، وفي سورة المؤمنين: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ۝٢٤ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ۝٢٥ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ﴾ [4]، فسورة المؤمنين ذكرت اتهامهم له بالجنون، ثم طلبه للنصر من رب العالمين، وهي أقرب إلى آيات القمر، ﴿وَقَالُواْ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ﴾ في قوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ ، وكذلك ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾ قريبة من ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ﴾ . وآيات القمر أكثر إيجازاً.

وفي قوله:﴿وَٱزْدُجِرَ﴾ من الفعل زجر، وهي صيغة افتعال على وزن افتعل، وقد بني الفعل للمجهول، والمراد المنع من أداء الرسالة بقوة وقسوة وغلظة، والكلمة تحمل معنى الاتهام والزجر والمنع، وكل ما كانوا يفعلونه ذكره القرآن مفصلاً في سورة أخرى قال تعالى:﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [5]،﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُ﴾ [6]، ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾ [7]، فهذه الأفعال مع نبيهم من التهديد والسخرية والاتهام قد اختصرت في كلمة ﴿وَٱزْدُجِرَ﴾ ، ونتأمل الكلمة بحروفها وجرسها وامتزاج حروفها تعبر عن المعنى الذي سيقت له، ولذلك جعل علماء الإعجاز الإيجاز وجهاً من وجوه الإعجاز القرآني، ثم تنطلق دعوة نوح عليه السلام بعد يأس من إيمانهم ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾ هذه الآية تصور ضعف نوح ويأسه وإحساسه بالظلم بعد تجربة مريرة مع قومه بلغت ألف سنة إلا خمسين عاماً، ونكاد نرى ضعف نوح عليه السلام وتوسله وهو يطلق زفراته ويرفع يده داعياً ﴿أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾ ، وما أجمل هذه الكلمات وما

---

(١) آية:(٧٣).

(٢) آية :(١١١).

(٣) آية : (١١٦).

(٤) آية: (٢٤-٢٦).

(٥) سورة الأعراف: آية (٦٠).

(٦) سورة هود: آية (٣٨).

(٧) سورة الشعراء: آية (١١٦).

أصدقها في وجازتها وقصرها، وامتلاء المعاني فيها. كلمتان أطلقها هزت عرش الرحمن بعد أن بذل كل وسائل الإقناع، لكن التكذيب والإعراض حال دون تحقيق ما يريد، فأطلق هذه الزفرة الأخيرة ودعوة الأنبياء مستجابة.

وجاء التوكيد في صدر الجملة الخبرية؛ للإشعار بأن أمراً أهمّ نفسه حتى يُعطى حقه من الإصغاء والحفاوة، ثم عطف عليه الأمر ﴿ فَٱنتَصِرۡ﴾ ، وهو أمر يفيد الدعاء والسرعة والطلب بهذه الفاء الملحقة به، وقال ﴿ فَٱنتَصِرۡ﴾ ولم يقل فانصرني، مراعاة لفاصلة الكلام وإيجازاً للكلام هذا أولاً، وثانياً أن ينتصر أبلغ من انصرني؛ لأن انصرني أي خذ بحقي فقط، أما انتصر أي خذ منهم بثأري وثأر غيري ممن نال الأذى منهم، لأن الكافر لا يؤذي من يدعوه إنما يؤذي كل من في الأرض بكفره وظلمه.

ثم كانت الإجابة السريعة من السماء، وكان المدد الإلهي، وعقاب الظالمين وانتصار للمظلوم ﴿ فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ﴾ ، ولا نرى سورة فصلت كيفية حدوث الطوفان كما فصلته هذه السورة، وبدأت بالفاء التي تفيد التعقيب؛ لبيان سرعة نزول العذاب، فالفتح كان بعد انتهائه من الدعاء.

وهذه الآيات فيها من البلاغة والإعجاز ما فيها، فالسماء لها أبواب ينزل منها قدر الله كما يصعد إليها حاجات المخلوقين، فدعاء نوح عليه السلام صعد إلى السماء فكانت الإجابة، حيث فتحت أبوب السماء بماء منهمر، وهي هيئة تمثيلية لحالة دفق الأمطار من سحب السماء بهيئة خروج الجماعات من الأبواب، والهمر هو الصب الشديد، وقد أسند الفعل إلى الله بناءً على حال المتكلمين، وما أشده أن كان من الخالق ﴿ فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ ، وفي أبواب معنى الكثرة، وفي إسنادها إلى السماء معنى العظمة، وللسماء أبواب ، ولأبواب السماء مفاتيح تفتح بها، ومفاتيحها الماء المنهمرة، وتأمل الفتح بالماء، وما في الباء من معنى التعدية، فالماء كالآلة يفتح به من شدة تدفقه، وقيل معنى (الباء) الحال أي ففتحناها متلبسة بهذا الماء[1].

ويعدّ الجار والمجرور ﴿ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ﴾ معْقد المعنى ورأسه، لأننا لو قال: ففتحنا أبواب السماء لم يدل على شيء[2]، ففيها جمال المعنى ودلالته على الكثرة والشدة. وهذه حال

---

(١) انظر: تفسير البحر المحيط لأبي حيان (٧/ ١٧٧).

(٢) انظر: كتابي عبد القاهر لمحمد أبو موسى ص(٢٤٠).

السماء، أما حال الأرض فكان أشد ﴿ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا ﴾ فالعيون قد انتشرت في كل مكان من الأرض، فكأن الأرض كلها قد صارت عيوناً تتفجر، وهذا أبلغ من وفجرنا عيون الأرض.

وقد وقف إمام البلاغيين عبد القاهر الجرجاني أمام هذه الآية وبيّن موضع العظمة والهيبة فيها فقال: (وذلك أنه قد أفاد أن الأرض قد صارت عيوناً كلها، وأن الماء قد كان يفور من كل مكان فيها، ولو أُجري اللفظ على ظاهره فقيل: (وفجرنا عيون الأرض، أو العيون في الأرض) لم يُفد ذلك ولم يدل عليه، ولكان المفهوم أن الماء قد كان فار من عيونٍ متفرقة في الأرض)[1].

ثم كان التناسق والتناغم العجيب بين ماء الأرض وماء السماء ﴿ فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾ التقى الماءان كما يلتقي الجيشان، والتعريف في الماء للجنس أي جنس الماء، ﴿ عَلَىٰٓ أَمْرٍ ﴾ والأمر هو الحال والشأن والأمر العظيم[2]، وهل هناك أمر أعظم من هذا، وهذا الأمر ﴿ قَدْ قُدِرَ ﴾ أي قدرة الله عنده في اللوح المحفوظ منذ أن خلق السماء والأرض، وقد تفيد تحقيق وتوكيد الكلام الداخلة عليه، وفي بناء (قُدّر) للمجهول بضم القاف أي قدرة الله، وفي البناء للمجهول ومجيء الفعل دون فاعل أو مفعول دلالة العظمة والسيطرة والألوهية، وأن هناك مقدر لا يدرك كنهه أحد.

يقول ابن عاشور: (ووصف الأمر بأنه ﴿ قَدْ قُدِرَ ﴾ أي أتقن وأحكم بمقدار قال تعالى:﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾)[3].

وتأتي آيات سورة هود: ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ ﴾ تكملة لهذا المشهد، وكان المشهدان في السورتين وجهان لحقيقة واحدة، وهي تصوير العذاب بصورة بليغة متفردة، ففي سورة القمر وصف لبداية نزول العذاب، وفي هود وصف لنهايته. فآية ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ ﴾ تقابل﴿ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا ﴾ ، و ﴿ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى ﴾ تقابل ﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴾ ، و﴿ وَغِيضَ ٱلْمَآءُ ﴾ تقابل ﴿ فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾ ، وقد نزلت سورة هود بعد سورة القمر فكانت تكملة لها.

---

(١) دلائل الإعجاز ص(١٠٢).

(٢) المفردات ص(٢٤).

(٣) انظر: التحرير والتنوير (٢٧/ ١٨٤).

ثم كانت نجاة نوح ﴿ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴾ ، والألواح : الخشب جمع لوح، وهي القطعة المسواة من الخشب، والدسر: المسامير الواحد: دسار[1]. وتعبير ﴿ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴾ يكنى بها عن السفينة، وفي ذكرهما بيان بأن السفينة محكمة قوية بالدسر والألواح في هذا الموقف الشديد الذي أحاط خطره بكل شيء، فهي قد صنعت برعاية الله وعنايته ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ﴾ [2]، والتنكير في ﴿ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴾ يفيد التعظيم والنوعية، فهي من نوع عظيم من الألواح والدسر محاطة برعاية الله، فهي تجري بين أمواج كالجبال فلا تتأثر بها، ويمكن أن تكون الكناية عن السفينة بذات الواح ودسر تهويناً لها، وأنها صنعت من أشياء متواضعة لكنها تصارع الأمواج بأمر الله وقدرة الله وحفظ الله، وفي ذلك تكريم لهذه الفئة المؤمنة ، فقد نجاهم الله وهي على سطوح ألواح ودسر[3].

وذكر ﴿ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ﴾ التي للاستعلاء، والحمل كان في الداخل بدلالة قوله تعالى: ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴾ [4]، ﴿ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ﴾ [5] وفي ذلك دلالة التمكين[6]، ولذلك قال بعدها ﴿ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴾ فكما صنعت السفينة بعينه سبحانه وتعالى فقد جرت بعينه ﴿ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ﴾ ، والعين تطلق مجازاً على الاهتمام والعناية والرعاية، وبإثبات صفة العين تثبت الرؤية والحفظ والعناية.

والله سبحانه وتعالى منزه عن الأعضاء والجوارح، فمعنى أعيننا أي عظيم عنايتنا، وذلك أن من كان عظيم العناية بالشيء فإنه يضع عينه عليه، ووضع العين سبب للعناية فصارت العين كناية عن الحفظ والاحتياط، وفي جمع الأعين دلالة التعظيم وتقوية المعنى، وأنها حراسات وعنايات متنوعة الآثار، ثم كانت علة الحفظ ﴿ جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴾ ، و﴿ جَزَآءً ﴾ مفعول لأجله أي فعلنا ذلك جزاء لمن كفر به، وهي كناية عن نوح عليه السلام الذي كفر به قومه، وعبر ب(كان) التي للماضي للدلالة على طول مدة كفرهم، وكيف أنهم استحقوا العذاب لطول عنادهم، وفي مدها بيان لطول مدة تكذيبهم.

---

(١) المفردات ص(١٦٩).

(٢) سورة المؤمنين: آية (٢٧).

(٣) انظر: التصوير البياني لمحمد أبو موسى ص(٤١٨).

(٤) سورة الحاقة: آية (١١).

(٥) سورة هود: آية (٤٠).

(٦) انظر: التحرير والتنوير (٢٧/ ١٨٥).

ولنتأمل هذه العبارة المتفردة في الكناية، فهي كناية عن موصوف وهو نوح عليه السلام، الذي أخلص لربه وجدّ في دعوة قومه ليلاً ونهاراً فكان جزاؤه حفظ الله له من الطوفان الشديد الذي لم ينج منه أحد إلا بأمر الله، وفي ذلك إشارة إلى أن حفظ الله ورعايته يحيطان بعبده الذي يخلص في عبوديته، وما أدراك ما رعاية الله وما حفظه حين تحيطان بعبده.

وتأمل اسم الموصول (من) الذي يخفي وراءه ذلك النبي العظيم، ثم (كان) التي تدل على طول عهد التكذيب، و﴿ كُفِرَ﴾ التي بنيت للمجهول؛ لتفيد اختصار (كفر به المكذبون) وتخفي وراءها شدة الكفر التي كان عليها قومه.

ثم تختم القصة بهذا التوكيد ﴿ وَلَقَد تَّرَكۡنَٰهَآ ءَايَةٗ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾ والترك إبقاء الشيء وعدم زواله[1]، وقد أبقى الله سفينة نوح شاهدة على انتقام الله ممن عصاه. وأكدت باللام وقد، ويقال: إن السفينة ظلت على جبل الجودي محفوظة من البلى تشهدها الأمم، كما جعل الله ديار عاد وثمود شاهدين على عذاب الله لمن كذب، والضمير في﴿ تَّرَكۡنَٰهَآ﴾ للتعظيم، وفي سورة العنكبوت ﴿ وَجَعَلۡنَٰهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾[2] ، وبين﴿ تَّرَكۡنَٰهَآ ﴾ و﴿وَجَعَلۡنَٰهَآ ﴾ مناسبة للسياق الذي وردت فيه كل منهما، ففي العنكبوت جاءت ابتداءً، ولذلك قال﴿ وَجَعَلۡنَٰهَآ ﴾ ، وهنا جاءت في آيات الطوفان وحركتها بين الأمواج ثم حفظ الله لها[3].

وختمت الآية بقوله:﴿ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾ بالاستفهام الذي معناه الأمر، أي اذكروا واتعظوا مما حصل، وقد ذكرت هذه الآية بعد قصة الأنبياء في موضعين من السورة : الموضع الأول هنا، حيث ختمت بها قصة نوح عليه السلام، والموضع الثاني: ختمت بها القصة الأخيرة في السورة، وهي قصة فرعون.

وبنظرة أخيرة على نظم الآية نجد أن الأحداث في القصة ترابطت بالحرفين الواو والفاء، جاءت الفاء لتشير إلى تتابع الأحداث؛ حيث بدأت تتوالى تباعاً﴿ فَكَذَّبُواْ ،.. فَدَعَا ،.. فَٱنتَصِرۡ،.. فَفَتَحۡنَآ ﴾، فهم لم يتركوا لأنفسهم مجالاً للتكفير، بل كان التكذيب يتوالى بعد الدعوة، فلما كان اليأس كانت دعوة النبي الذي انفتحت لها أبواب السماء مباشرة.

ثم نرى الواو تربط بين أجزاء القصة الداخلية ﴿ وَفَجَّرۡنَا ..... وَحَمَلۡنَٰهُ ﴾، وهكذا تلاحمت

---

(1) المفردات ص(٧٤).
(2) سورة العنكبوت: آية (١٥).
(3) انظر: التحرير والتنوير (٢٧/١٩٨).

الجمل وترابطت.

وتنتهي قصة نوح عليه السلام مع قومه لتأتي آيات تحمل معنى الترهيب والترغيب، تتكرر في كل قصة من قصص الأمم المكذبة، قال تعالى:﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾، وفي قوله تعالى: ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ استفهام للتعظيم والتعجب، أي كان على كيفية هائلة لا يحيط بها الوصف، والنذر جمع نذير وهو من الفعل (أنذر)، والإنذار إخبار فيه تخويف[1]، وجمعت لتكرار الإنذار من الرسول لقومه طلباً لإيمانهم[2]، وقد ذكرت هذه الآية في أربعة مواضع من السورة.

وبعد آية الترهيب هذه جاء الترغيب ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ ، ووجه المناسبة بينهما أنه لما ذُكرت قصص الأقوام المكذبة نبه إلى أنها في القرآن الذي يسره الله لكل الناس ليقرؤوه ويفهموه.

ومجيء المعاني على هذا الوجه هو من باب دمج المعاني المتنوعة المختلفة وإفراغها إفراغاً واحداً، حتى يُرى الكلام الذي يتضمن المعاني المتنوعة المختلفة متلاحماً قد أفرغ إفراغاً واحداً يخلو من إعياء الخروج من معنى إلى معنى آخر، وهذا هو الباب الذي ذكره الباقلاني، واعتبره وجهاً من وجوه إعجاز القرآن[3].

وقد أكدت جملة ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ باللام وقد، لمواجهة المشركين، والتيسير والسهولة وعدم التكلف في تحصيل المطلوب، وقيّد التيسير بأنه للذكر، وتيسير القرآن تيسيران: تيسير لفظ ، وتيسير معنى، فكلمات القرآن جاءت على أبلغ لفظ وأفصح تركيب، مبرأة من الغريب والوحشي، لها سلاسة وحلاوة، بحيث يسهل حفظها في الأذهان، وهذا التيسير كان من أجل الذكر والإفادة مما فيه، ولذلك جاء بعدها أسلوب الاستفهام ليفيد معنى الأمر في قوله تعالى:﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ أي اذكروا واتعظوا.

وعلى ذلك فالإدكار إدكاران: إدكار جاء بعد قصة نوح عليه السلام، وإدكار بعد ذكر القرآن .

القصة الثانية: قصة قوم عاد:

قال تعالى:﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ

---

(١) انظر: المفردات ص(٤٨٧).

(٢) انظر: التحرير والتنوير (١٨٧/٢٧).

(٣) انظر: إعجاز القرآن ص(٣٨).و الإعجاز البلاغي ، د/ محمد أبو موسى ص ٢٠٨

مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٣٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [1].

شروع في قصة جديدة لم تعطف إشارة إلى أن كل قصة مستقلة في القصد والاتعاظ[2]. وهذا من باب القطع والاستئناف، ولم تعطف على ما قبلها لكمال الاتصال بينهما، فقصة عاد عطفت على قصة نوح وهما متفرعتان من جملة ﴿وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ﴾ التي هي رأس الفكرة، وهكذا تتعاطف الجمل بدون الواو، وقد ترابط القصص القرآنية في السورة بالواو كما في سورة النمل يبدأ بقوله تعالى:﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ﴾ [3] ويستمر بجملة حتى يبدأ مقطع آخر بالواو وهو ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا﴾ [4]، ثم تستمر القصة ويترادف الكلام موصولاً ومفصولاً حتى تبدأ قصة ثمود ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ ، وهكذا تتعاطف هذه الجمل بتفريعاتها[5]، وهكذا في سورة القمر، ولكنها بدون الواو .ففي النمل جاءت الآيات لتبين نعمة الله على الأنبياء ، وفي القمر جاءت كل قصة موعظة بذاتها متكاملة في بيانها ، تنهض بالغرض وحدها .

وقصة عاد ذكرت في مواطن كثيرة من القرآن، واختصرت هنا بأن ذُكر جزاؤهم فقط، بينما نجد تفاصيلها في سور أخرى كالأعراف، فقد استوعبت القصة في سبع آيات من الآية الخامسة والستين إلى الآية الثانية والسبعين، حيث ذكرت حوار قوم عاد مع نبيهم، ثم اختصر العذاب في آية واحدة ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [6]، وفي سورة هود ذكر الحوار بين هود وقومه ثم أوجز العذاب في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [7]، أما في الذاريات فقد ذكر نوع العذاب المرسل إليهم ﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾ [8].

---

(١) سورة القمر: آية (١٨-٢٢).

(٢) انظر: روح المعاني (٨٤/٢٨).

(٣) آية: (٧).

(٤) آية: (١٥).

(٥) انظر: دلالات التراكيب، لمحمد أبو موسى ص(٣٥٩).

(٦) سورة الأعراف:آية (٧٢).

(٧) سورة هود:آية (٥٨).

(٨) سورة الذاريات:آية (٤١-٤٢).

وفصل ذكر العذاب أيضاً في سورة الحاقة قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴾[1]، وسورة الحاقة أقرب إلى سورة القمر في نظم آياتها.

وقد بدأت آيات القمر بقوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾، ولما كان أكثر القوم قد كذبوه نسب التكذيب إليهم جميعاً، ثم فرع على الجملة آية ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ قبل أن يذكر تكذيبهم كما في قصة نوح، تشويقاً لما بعده من ذكر العذاب، وتهويلاً لأمر التكذيب، وأنه محق للعذاب، ولتوجيه قلوب السامعين نحو الإصغاء إلى ما يُلقى إليهم قبل ذكره[2].

ثم يأتي ذكر العذاب ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ۝٨ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾، وقد وصفت الريح بأنها ﴿ صَرْصَرًا ﴾، وفي الحاقة ﴿ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾، وفي الذاريات ﴿ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴾، والصرصر: هي الريح الباردة، وأصل الصرّ: الشدّ، لما في البرودة من التَّعَقُّدِ[3]، وفي ذلك دلالة على أن الريح كانت شديدة جداً، ووصفت في الحاقة بأنها عاتية، والعتو: نبؤ عن الطاعة[4]، وكأن الريح قد خرجت عن طورها وصارت نافرة تضرب يمنة ويسرة.

ثم تأمل وصف اليوم في القمر بأنه﴿ يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴾، والنحس هو الشؤم، وأصل النحس أن يحمر الأفق فيصير كالنحاس، أي لهب بلا دخان، فصار ذلك مثلاً للشؤم[5]. وتأتي الفاصلة لتصف يوم النحس بأنه ﴿ مُّسْتَمِرٍّ ﴾ دلالة على طوله ودوام ما فيه، وقيد في الحاقة زمن الاستمرار ﴿ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ﴾.

ثم وصفت الآيات ما فعلته الريح بهم ﴿ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾ أي تنزع الناس وترميهم على الأرض خفافاً فارغين، والنزع: الإزالة بشدة حتى لا يبقى اتصال بين المزال والمزال عنه، وهذا يناسب ما عرفوا به من ضخامة الأجسام وعتو الرياح الشديدة .

ثم شبههم ب﴿ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾، والمنقعر: الذي أزيل من نهايته بعد أن كان ضارباً

---

(١) سورة الحاقة: آية (٦)٨).

(٢) انظر: تفسير أبي السعود (٨/ ١٧٠).

(٣) المفردات ص(٢٧٩).

(٤) المفردات ص(٣٢١).

(٥) المفردات ص(٥٢).

في أعماق الأرض، وهذا يناسب قوله في المشبه ﴿ تَنزِعُ ﴾ فالنزع والمنقعر يشتركان في أن كلاهما إخراج من الأصول. وهكذا تتقابل الكلمات وتتناغم في معانيها في سياق الآية الواحدة.

أما في الحاقة فقد جاء تشبيههم بأعجاز نخل خاوية ﴿ فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ ، فهنا تشبيه لنزعهم، وهناك تشبيه لهم وهم صرعى، هناك نخل نزع من أعماقه، وهنا نخل خاوية، والخاوي يشمل المنقعر وزيادة، فكل نخل منقعر هو نخل خاوي، وليس كل خاوٍ منقعر. وأنّث خاوية؛ لأنه أكثر من المنقعر، وأن دماره أبلغ فناسب أن تأتي في سياق التدمير، والتأنيث يأتي للكثرة والمبالغة[1]، وذكر المفسرون أن النخل ذُكّر في آية القمر للنظر إلى اللفظ، وأنّث في الحاقة للنظر إلى المعنى[2]، والنخل في الحاقة أكثر من النخل في آية القمر؛ لأنه جاء في سياق فصّل فيه العذاب، أما في القمر فقد بنيت القصة على الإيجاز والسرعة.

وتختم القصة بما ختمت به قصة نوح عليه السلام ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ ، والاستفهام في ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ للتهويل. ويعلل الكرماني تكرارها مرتين باعتبار أن الأولى في الدنيا والثانية في العقبى، وقيل: الأولى لتحذيرهم قبل إهلاكهم، والثانية: لتحذير غيرهم بهم بعد هلاكهم[3].

وينفي أبو السعود أن تكون الآية تكراراً فيقول: (﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ تهويل لهما، وتعجب من أمرهما بعد بيانهما، فليس فيه شائبة تكرار، وما قيل من أن الأولى لما حاق بهم في الدنيا، والثانية لما يحيق بهم في الآخرة يرده ترتيب الثاني على العذاب الدنيوي)[4].

ومن وجه آخر يعلل التكرار بأن عاداً لما كذبوا هودا عليه السلام امتحنوا بالقحط الشديد، واشتد الأمر عليهم فخوفوا بـ ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ الأولى، ثم لما لم يُجْد ذلك عليهم مع أليم امتحانهم به أهلكوا بالريح العقيم، فامتحنوا بعذابين)[5].

وأرى أن هذه الآيات جاءت لتحقيق الإيجاز الذي بنيت عليه السورة ذلك أن آية ﴿ فَكَيْفَ

---

(١) انظر: تفسير أبي السعود (٨/ ١٧١).

(٢) انظر: تفسير أبي السعود (٩/ ١٧١)، تفسير الألوسي (٢٧/ ٨٧).

(٣) انظر: أسرار التكرار في القرآن، لمحمود بن حمزة الكرماني ص(١٩٧).

(٤) انظر: ملاك التأويل، لأحمد بن الزبير الغرناطي (٢/ ٨٧٨).

(٥) تفسير أبي السعود (٨/ ١٧١).

كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ استفهام للتعظيم والتهويل لما فعلوه، وكأنها تخفي وراءها كثيراً من المعاني التي تنوء بها الكلمات في هذا الموقف، فألقى الاستفهام ليحمل في طياته كثيراً من المعاني الخفية وراء هذه القصة.

القصة الثالثة: قصة قوم صالح عليه السلام:

ذكرت قصة قوم صالح في عشر آيات، وهي أطول قصة في هذه السورة، وقد بدئت بما بدأت به قصة نوح وعاد ﴿ كَذَّبَتْ ﴾ وهي كما قلنا: الخيط الذي يجمع بين كل القصص في هذه السورة.

قال تعالى:﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ (١)

أسند التكذيب إلى ثمود وهي قبيلة كانت تسكن مدائن صالح، ونبيهم صالح عليه السلام، وفرق بين (كذبت ثمود النذر) و﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ﴾ ، لأن المراد بالنذر صالح وما جاء به،وقد ذكرت الآيات تكذيبهم بالناقة ، بخلاف كذب النذر أي الرسل المرسلون إليهم، وقد تتبعت ذلك في القرآن فوجدت أن التعدي يأتي بالباء حين يراد التكذيب بما جاء به الرسول، ولا يعدى إذا كان المراد تكذيب النبي قال تعالى:﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ (٢)، ﴿وَكَذَّبْتُم بِهِ﴾ (٣)، وقال: ﴿كَذَّبُوا الرُّسُلَ﴾ (٤)، ﴿فَكَذَّبُوا رُسُلِي﴾ (٥).

وجمعت النذر والمراد بها بيان كثرة ما كان ينذرهم به نبيهم، ثم عطف عليها جملة تكذيبهم بصالح عليه السلام ﴿ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ ، وقد عطفت بالفاء للدلالة على أن تكذيبهم للآيات أعقبه تكذيبهم لرسولهم، وكأنهما متلازمان متعاقبان، ودار تكذيبهم حول أمرين: الأول: نفي بشرية الرسول، والثاني: نفي

---

(١) سورة القمر:آية (٢٣-٣٢).
(٢) سورة الأعراف:آية (٤٠).
(٣) سورة الأنعام:آية (٥٧).
(٤) سورة الفرقان:آية (٣٧).
(٥) سورة سبأ:آية (٤٥).

اتباع نبي ليس له أتباع ولا أعوان، فهم أنكروا بشريته ثم أنكروا وحدته، وفي إنكار أن يكون بشراً مرسلاً إليهم إنكار لنبوته على أبلغ وجه.

وقد دخلت الهمزة على ﴿ أَبَشَرًا ﴾ وهي مفعول به، فالهمزة تدخل على المسئول عنه، وفرق بين (أنتبع بشراً) وبين (أبشرا نتبعه) ففي الأول: إنكار أن يتبعوا، وفي الثاني: إنكار اتباع بشر، وأرادوا أن يكون الرسول من جنس غير جنس البشر.

وهذا ما أصّله عبد القاهر الجرجاني وهو يتحدث عن الاستفهام في الهمزة، وقد ذكر هذه الآية وهو يتحدث عن تقديم المفعول على المضارع يقول: (إن للتقديم من الحسن والمزية والفخامة لا يكون لو أخر، وذلك لأنهم بنوا كفرهم على أن من كان مثلهم بشراً لم يكن بمثابة أن يتبع ويطاع، وينتهي إلى ما يأمر، ويصدق أنه مبعوث من الله تعالى، وأنهم مأمورون بطاعته)[1].

وفي تنكير البشر تحقيرً له، فهم لم يقولوا أصالحاً نتبعه، أو أرجلاً نتبعه، بل قالوا: ﴿ أَبَشَرًا ﴾ ، وقالوا:﴿ مِّنَّا ﴾ ؛ لأنه إذا كان منهم كانت المماثلة بينهم أقوى[2]. وإنكار بشرية الرسول كان ديدن كل المكذبين، ففي قصة نوح﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٞ يَهۡدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْ ﴾ [3]، وقال قوم شعيب لنبيهم﴿ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ١٥٣ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴾ [4].

ثم عطف على بشر قولهم: ﴿ وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ ﴾ أي منفرداً لا تبع له، فأنكروا أيضاً أن يكون المتبع منفرداً لا تبع له، أو واحداً من آحادهم لا من أشرافهم، ففي مفهومهم أن كلاً من الجنسية والوحدة مما يمنع إتباعهم، وفائدة تقديم (واحداً) المفعول على (نتبعه) أنهم قدّموا في الكلام ما تعلقهم به أكثر، وهم يريدون أن يبينوا أنهم محقين في ترك الإتباع، فلو قالوا أنتبع بشراً يمكن أن يقال: نعم اتبعوه وماذا يمنعكم من إتباعه، فإذا قدموا حاله وقالوا: هو من نوعنا بشر ومن صنفنا، وهو واحد وحيد وليس له جند وحشم، فكيف نتبعه؟ فيكونوا قد قدموا الموجب لجواز الامتناع من الإتباع[5]. وهذا رأي الفخر الرازي، وقد أثبته

---

(١) دلائل الإعجاز (١٢١-١٢٢).

(٢) انظر: تفسير البحر المحيط (٨/ ١٨٠).

(٣) سورة التغابن:آية (٦).

(٤) سورة الشعراء:آية (١٨٥-١٨٦).

(٥) التفسير الكبير (٢٩/ ٥٠).

لأهميته.

نعود فنقول: إن كل هذه الأعذار التي قدموها لا تتفق مع العقل وهي مراوغة أهل الكفر والضلال، ثم ذكروا ما سيؤلون إليه إن اتبعوا صالحاً فقالوا: ﴿ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴾ ، والضلال: عدم الاهتداء إلى الطريق، والسعر: جمع سعير وهو العذاب، وقيل: معناه الجنون[1]. وروي أن نبيهم كان يقول لهم: إن لم تتبعوني كنتم في ضلال عن الحق وسعر أي نيران، فعكسوا ذلك عليه[2]، وقد يكون المراد أنهم قالوا: لو اتبعناه فإنا إذاً في الحال في ضلال وسعر من الذل والعبودية، لأنهم لم يكونوا يعترفون بالسعير فاستخدموا الضلال والسعر مجازاً في الذل والعبودية، وهذا ما سمي عند البلاغيين بأسلوب الحكيم، وهو تلقي المخاطب بغير ما يترقب بحمل كلامه على خلاف مراده، وعبد القاهر يسمي هذا الأسلوب المغالطة.[3]

وفي جمعهم سعير على سعر، للدلالة على شدة ما يصيبهم إن هم اتبعوا نبيهم، وكأنهم أحرص على أنفسهم منه، ثم عطفوا على إنكارهم الأول إنكاراً آخر فقالوا: ﴿ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴾ فهم ينكرون أن يكونوا قد أوحي إليه وفيهم من هو أحق منه، كما أنهم ينفون نزول الوحي عليه.

والنفي بطريقة الاستفهام أبلغ، يقول الفخر الرازي وكان ذا حسٍ بلاغي متميز في تفسير القرآن: (الأن من قال ما أنزل عليه الذكر ربما يعلم أو يظن أن السامع يكذبه، فإذا ذكر بطريقة الاستفهام يكون معناه أن السامع يجيبني بقوله: ما أنزل، فيجعل الأمر حينئذٍ منفياً ظاهراً لا يخفى على أحد، بل كل أحد يقول ما أنزل)[4].

وفي قولهم: ﴿ أَءُلْقِىَ ﴾ بدل أأنزل إنكار عن طريق المبالغة، لأن الإلقاء معناه الإنزال بسرعة، فهم يستبعدون أن يكون هناك إنزال من السماء البعيدة، ولو قالوا: (أأنزل) فيه إشارة إلى أنهم مؤمنون به، ثم أكدوا ذلك التكذيب بقوله: ﴿ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا ﴾ أي أن فيهم من هو أحق منه، وهذا تفكير المعاندين والجهلة الذين يقيسون الأمور على وفق عاداتهم وأهوائهم، ثم اتهموه بالكذب فقالوا: ﴿ بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴾ ، و(بل) حرف إضراب يأتي بعده

---

(١) انظر: التحرير والتنوير (١٩٧/٢٧).

(٢) انظر: البحر المحيط (١٨٠/٨).

(٣) انظر: خصائص التراكيب، د. محمد أبو موسى ص(٢١١).

(٤) التفسير الكبير (٥١/٢٨).

جملة فيكون معنى الإضراب إما الإبطال أو الانتقال[1]. فهم أثبتوا أنه ليس نبيا، ثم نسبوه إلى الكذب، وهذا من أشد شناعات أفعال من كفر بالله، وفي ذلك تعريض لمكذبي قريش، وتشابه كلامهم لكلام هؤلاء القوم.

و(الكذاب) على وزن فعّال من فاعل للمبالغة، والمبالغة إما في الكثرة أو الشدة في أنه يقول مالا يقبله العقل. والأشر: هو الفرح البطر، والأشر أكثر من البطر، فاتهموه بأنه معجب بنفسه مدع ما ليس فيه[2]، وهذه جراءة وتعدي من القوم حين وصفوه بهاتين الصفتين الكاذبتين.

ثم يأتي الرد الإلهي متوعداً ﴿ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴾ ، وليس المراد بالغد اليوم الثاني إنما يدل على قرب زمن الجزاء، وأن الرد والجزاء سيكون قريباً بدلالة ﴿ سَيَعْلَمُونَ ﴾ بالسين التي يراد بها المستقبل القريب، وهو رد غليظ على كلامهم.

ثم ينتقل الخطاب إلى نبي الله صالح ﴿ إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ۝٢٧ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴾ وفرق بين أن تحكي القصة على سبيل الماضي أحداثاً وقعت كأن يقول: فأرسل الله الناقة لهم وقال لصالح: أخبرهم أن الماء قسمة بينهم، وبين ﴿ إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ ﴾ بطريق المستقبل؛ لأنها بمعنى إنا نرسل الناقة، ويدل عليه ﴿ سَيَعْلَمُونَ غَدًا ﴾ ، وفي التعبير عن الأحداث الماضية بصيغة المضارع استحضار للحدث وكأنه يقع الآن . فيكون تأثيره أكثر.

ثم أمره بأمور أولا ﴿ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴾ ومعنى ارتقب: فعل أمر مزيد من (رقب) على وزن افتعل، أي تنظر وتبصر ما هم فاعلون[3]. ويترتب على هذا الترقب مزيداً من الصبر، فلذلك قال له: ﴿ وَٱصْطَبِرْ ﴾ ، واصطبر على وزن افتعل، وزيادة المبنى زيادة في المعنى، أي اصبر صبراً لا يخالطه ضجر على ما يفعلونه مما قد تنكره ويصعب عليك من القول والفعل، وفي هذا دلالة على أن وراء هذه المراقبة والصبر نزول النصر من الله، ثم عطف على هذا الترقب والاصطبار أمراً ثانياً وهو إخباره بحال هذه المعجزة ﴿ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴾ ، والنبأ غير الخبر، ولا يكون إلا فيما عظم من الأمور، وهذا النبأ هو أن هذه الناقة ستشاركهم

---

(١) انظر: مغني اللبيب لابن هشام (١/١١٢).

(٢) المفردات ص(١٨).

(٣) تفسير النهر الماد لأبي حيان في هامش تفسير البحر المحيط (٨/١٧٩).

في شرب الماء، وقد كانت ناقة عظيمة، فجعل الله الماء يوماً للناقة ويوماً للقوم، وهنا تكون الفتنة هل يقبلوا بما أمرهم الله به، أم يعصونه؟ وفي تعريف الماء بال العهدية دلالة على أنه الماء الذي يستقي منه أهل القرية، و﴿ قِسْمَةٌ ﴾ أي مقسوم، وعبر عن اسم المفعول بالمصدر للتأكيد والمبالغة، والشِرب بكسر الشين هو نوبة الاستسقاء من الماء[1]، وجملة ﴿ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴾ جملة مختصرة متفردة يؤكدها آية سورة الشعراء ﴿ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [2]، ومعنى﴿ مُّحْتَضَرٌ ﴾ أي لا يحضر في هذا اليوم إلا من خُصص له الماء للشرب، والـ﴿ مُّحْتَضَرٌ ﴾ بكسر الضاد اسم مفعول من الحضور، والمراد محتضر عنده.

ولنتأمل الإيجاز المبهر في هذه الآية ﴿ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴾ ، ومناط الفخامة في الحذف والإضمار، ففي﴿ وَنَبِّئْهُمْ ﴾ يعود الضمير على القوم، و﴿ قِسْمَةٌ ﴾ أي مقسوم، والإضمار في﴿ بَيْنَهُمْ ﴾ أي بين القوم والناقة، و﴿ مُّحْتَضَرٌ ﴾ أي محتضر عنده، وهذا الإيجاز يلائم هذه السورة التي بنيت على ذلك.

وبعد هذا كله ماذا فعل القوم ﴿ فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴾ ، وفي العطف بالفاء دلالة أنهم كذبوا وسارعوا بالتدبير لهذه الناقة، والنداء هنا نداء المستغيث له؛ ليغروه بقتل الناقة، والمنادى هو رجل يسمى قُدار بن سالف أو أحمر ثمود، وكان من ساداتهم وكان أجرأهم، ولم يذكر اسمه بل سمي﴿ صَاحِبَهُمْ ﴾ ؛ لأنه كان مشاركاً لهم في التكذيب، وما كان منه إلا أن ﴿ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴾ ، ونتأمل هذه (الفاء) التي تدل على سرعة تجاوبه معهم، وعدم تفكيره في العاقبة. ومعنى (تعاطى) أي تناول على صيغة (تفاعل)، أي كل واحد كان متردداً في قتل الناقة تخوفاً حتى كأنه يعطي ما بيده لغيره حتى أخذها قدار فقتل الناقة[3]، و(الفاء) دلالة سرعة إتيانه لما دعوه من أجله.

وعبر بالعقر عن القتل؛ لأن العقر في اللغة هو قطع إحدى قوائم الدابة ثم نحرها، يفعل ذلك كي لا تشرد عند النحر[4]، ثم صار العقر يطلق على مجرد القتل بأي وسيلة، وقيل: إنهم ضربوها بالنبل فعبر عن ذلك بالعقر.وذلك في كل آيات القرآن قال تعالى في الشعراء:

---

(١) انظر: تفسير التحرير والتنوير (٢٧/٢٠٠).

(٢) سورة الشعراء:آية (١٥٥).

(٣) انظر: البحر المحيط (٨/١٨١).

(٤) انظر: لسان العرب (/٥٩٢).

﴿ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ ﴾ [1]، وقال في هود: ﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾ [2]، وفي الشمس:﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴾ [3].

ثم يقول تعالى بعده:﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ [4] بالاستفهام، ليبين شدة غضبه سبحانه وتعالى، ويؤذن بإنزال العذاب به، ويختلف معنى الاستفهام هنا عن معناه قبل هذا، وذلك حسب السياق الذي وردت فيه، وبهذا وإن كررت الآية في الألفاظ فإنها تفيد في كل سياقٍ معنى يناسب القصة التي وردت فيه، وبهذا يظهر الإعجاز القرآني، ولذلك لما كان المراد بالآية هنا شدة غضبه تعالى جاء بعدها ذكر العذاب الذي نزل بقوم صالح قال تعالى: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴾ [5] جواباً للاستفهام بأسلوب تشبيه موجز.

وقد جرت طريقة سرد المعنى ونظمه على ما جرت عليه قصة عاد، حيث جاء ذكر العذاب بعد التهديد في قوله تعالى:﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ مع فارق وهو أن في قصة عاد لم يذكر ما فعلوه إنما اختصرت بذكر العذاب، أما هنا فقد فصل تكذيب قوم صالح ثم ذكر العذاب، ومن شأن أسلوب الاستفهام أنه لا يجهر بالحقيقة إنما يظل المعنى مسنداً إلى السامع يقلبه بين عينيه فيصل إلى المعنى، وفي هذه إثارة لحركة الفكر والحس، لتتهيأ نفسه لتلقي الخواطر والمعاني والصور التي يؤديها الاستفهام، ولذلك قال عبد القاهر في فائدة الاستفهام: (فإن الذي هو محض المعنى أنه ليتنبه السامع)[6]. وهذا التنبيه الذي ذكره هو ما يثار حول الأسلوب من حقائق ومشاعر وخواطر لا تكون إلا به.

وجاء بيان العذاب هنا على طريقة التشبيه كما في قصة عاد، وأسلوب التشبيه يأتي ليوضح المعنى ويصوره واقعاً، فيكون أوقع في القلب وأبلغ في أداء المعنى.

وقد أرسل الله عليهم﴿ صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴾ والصيحة هي الصاعقة في فصلت والذاريات، وهي الطاغية في الحاقة، والرجفة في الأعراف، ووصفت بأنها واحدة أي: هائلة شديدة كافية

---

(١) سورة الشعراء:آية (١٥٧).
(٢) سورة هود:آية (٦٥).
(٣) سورة الشمس:آية (١٤).
(٤) سورة القمر:آية (٣٠).
(٥) سورة القمر:آية (٣١).
(٦) سورة القمر:آية (٣١).

لإهلاكهم، وفيها دلالة القدرة الإلهية. ﴿ فَكَانُوا ﴾ أي صاروا، و(الهشيم) هو ما يبس وجفّ وتكسر من العشب والشجر، ويروى أنهم من الصيحة تفتتوا وهمدوا وصاروا كهشيم المحتظر و﴿ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴾ بكسر الفاء وهو الذي يعمل في الحظيرة، وذلك بأنه يجمع الهشيم من الشجر ويلقيه في الأرض، وهكذا صار الظالمون على هيئة مهينة فتتت أجسامهم ويبست وأُلقوا على الأرض، وفي إضافة ﴿ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴾ للهشيم حيث تؤدي معنى الإهانة والازدراء لهؤلاء العصاة، فهم لا كرامة لهم إنهم كالهشيم التي تطأه الدواب[1].

هذا التشبيه شبيه بعرض أجساد أصحاب الفيل في قوله تعالى: ﴿ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾ [2] والعصف المأكول: هو ورق الشجر بعد أن تأكله الدواب وتروثه، فأجسادهم تفتت وصارت إلى حالة أخرى، وفي :﴿ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴾ بيان لتفتت أجسادهم ولكنها بقيت كما هي، ومعنى الاحتقار والازدراء وارد في التشبيهين بيّن واضح. ثم تختم القصة بما ختمت بها سابقتها ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [3] تكرار للتذكر والاتعاظ بما أنزل الله.

وفي تفصيل قصة قوم ثمود دون غيرها من القصص في هذه السورة، لمشابهة حالهم بحال كفار قريش، ومعجزتهم بمعجزة صالح من حيث غرابتها. يقول الفخر الرازي: (واعلم أن الله ذكر في هذه السور خمس قصص، وجعل القصة المتوسطة مذكورة على أتم وجه، لأن حال صالح كان أكثر مشابهة بحال محمد ﷺ؛ لأنه أتى بأمر أرضي كان أعجب مما جاء به الأنبياء)[4].

القصة الرابعة: قصة قوم لوط عليه السلام:

قال تعالى:﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ ۝٣٣ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ۖ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ۝٣٤ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ۝٣٥ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ ۝٣٦ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ۝٣٧ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ۝٣٨ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ۝٣٩ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [5].

---

(١) انظر: البحر المحيط لأبي حيان (٨/ ١٧٩).

(٢) سورة الفيل:آية (٤-٥).

(٣) سورة القمر:آية (٣٢).

(٤) التفسير الكبير (٢٩/ ٥٣).

(٥) سورة القمر:آية (٣٣-٤٠).

بدأت القصة بما بدئت به القصص السابقة ﴿ كَذَّبَتْ ﴾ والتكذيب هنا كان من قوم لوط، وأضيف القوم للوط؛ لأنه لم يكن لهم اسم يُعرفون به عند العرب كقوم عاد وقوم ثمود، وكانوا يسكنون (سدوم) و(عمورة) من أرض كنعان عند شاطئ البحر الميت المسمى (ببحيرة لوط)، وقد أحدثوا فاحشة استمتاع الرجال بالرجال، فأرسل الله لهم لوطا عليه السلام، فنهاهم عن ذلك لكنهم استكبروا واستمروا في غيهم، فأرسل الله عليهم العذاب، ولم تذكر القصة هنا كيفية تكذيبهم لوطا كما في قصة قوم ثمود، وكما في قصتهم في سورة الأعراف وهود والحجر، وذلك لأن سورة القمر بنيت على معنى تهديد المشركين لإعراضهم، وتذكيرهم بما حصل للأقوام المكذبين من عذاب، وأنهم سيجدون ما وجد العصاة السابقون إن استمروا على ذلك، فلما لم يكن هناك حاجة إلى تفصيل القصة ذكر منها ما هو وجه الشبه بينهم وبين مشركي قريش.

فالآيات ركزت على ذكر عذابهم قال تعالى:﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَـٰهُم بِسَحَرٍ ﴾، وهناك في عاد﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا ﴾ ، وفي ثمود﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً ﴾ ، ولم يترتب على التكذيب عطف بالفاء كما في بقية القصص إنما قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا ﴾ فكأن هناك تقدير لجملة ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴾ لأنها لم تذكر في هذه القصة، فحذفت للإيجاز، ولأن قوله تعالى: ﴿ فَذُوقُوا۟ ﴾ قامت مقامها والله أعلم.

والحاصب: هي الحصباء بدلالة قوله تعالى:﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾ في سورة الحجر[1]، ولم تذكر الآية مآلهم بعد العذاب كما في القصتين السابقتين، بل أردف بمن استثنوا من العذاب وهم أهله أي بناته وهو معهم، ولم تنج زوجته لأنها كانت مع قومه قال تعالى: ﴿ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ ۙ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴾ [2]، وكانت نجاتهم بسحر، والسحر هو آخر الليل، والباء هنا بمعنى (في)، وقد جاءت للملابسة والمصاحبة أي نجاتهم صاحبت وقت السحر، لأن العذاب سينزل بهم بعد السحر فكانت النجاة ملاصقة لهذا الوقت، وكانت هذه النجاة نعمة من الله على آل لوط ﴿ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴾.

---

(١) آية:(٧٤).

(٢) سورة الحجر:آية (٥٩-٦٠).

ولنتأمل ﴿ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ﴾ اصطفاء وتكريم خصه الله به، وما أكملها من نعمة حين تكون من عند الله، لأن الله قد يهلك الصالح بعمل الفاسد قال تعالى:﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ﴾[1]، ثم يبعث كل بعمله، ونجاة الصالحين نعمة من الله واصطفاء لهذا المنجي، والتقدير في الآية (نجيناهم نعمة منا) نصب على أنه مفعول له، وفي تنكيرها بيان لعظمتها، وفي قوله:﴿ مِّنْ عِندِنَا ﴾ بيان لفضل الله على نبيه وحبه له، وهي أبلغ من (نعمة منا، أو أنعمنا).

ثم ذيلت الآية بقوله تعالى:﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴾ أي أن هذه النعمة وهذا الاصطفاء بسبب الشكر، وفي هذا وعد من الله لأمة محمد صلى الله عليه وسلم بأن ينجيهم من الهلاك إن آمنوا وشكروا، لأن (كذلك) تعني ننجي مثل هذه النجاة من شكر، وهي تقابل ﴿ جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴾ في قصة نوح عليه السلام.

ثم تأتي الآيات لتذكر أفعالهم التي استحقوا عليها العذاب معطوفة بالواو، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْاْ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴾ بدئت بالتوكيد بلام القسم وقد، وانتهت بكلمه (نذر) لتأكيد شناعة أفعالهم، فأولاً: أنذرهم بالبطشة، والبطش: أخذ الشيء بقوة قال تعالى: ﴿ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾[2]، والبطشة المرة من البطش[3]، ثم هي مضافة إلى الله أي من عند الله، وقوله:﴿ بَطْشَتَنَا ﴾ غير بطشنا، لأنها بيان لجنس البطشة دلالة على شدتها، وهي مثل قوله تعالى:﴿ صَيْحَةً وَٰحِدَةً ﴾ ، وأن القليل منها كفيل بإهلاكهم، لأنها من عند الله قال تعالى:﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾[4].

ثم إنهم بعد هذا الإنذار شكُّوا وكذَّبوا وتماروا بالنذر، والتماري تفاعل من المراء وهو الشك، وصيغة المفاعلة هنا للمبالغة، وقد كان منهم الشك والتكذيب بعد إنذارهم مباشرة بدلالة الفاء في ﴿ فَتَمَارَوْاْ ﴾ التي تفيد التعقيب، وعدم مبالاتهم بكلام نبيهم، ثم عطف على جملة إنذارهم وتكذيبهم لهذا الإنذار مراودتهم للملائكة﴿ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴾ ، والمراودة: أن تنازع غيرك في الإرادة فتريد

---

(١) سورة الأنفال:آية (٢٥).

(٢) سورة الشعراء:آية (١٣٠).

(٣) انظر: التحرير والتنوير (٢٧/٢٠٥).

(٤) سورة البروج:آية (١٢).

غير ما يريد، وهي على صيغة مفاعلة إذا ذهب ورجع في أمر، وقد مثلت هيئة من يكرر المحاولة والمراجعة بهيئة المنصرف ثم الراجع[1]، ولذلك عديت بـ (عن) التي تبين الكيفية التي كانوا عليها من المجادلة والمراجعة وذهابهم ومجيئهم ليقنعوه بفعل الفاحشة بالأضياف، وضيف لوط هم الملائكة الذين أرسلهم الله لإبراهيم ليبشروه بإسحاق، ثم أرسلهم إلى قوم لوط لإنذارهم بالعذاب، فراودوا الملائكة، ولكن الله طمس على أعينهم يقال: إن جبريل عليه السلام كان فيهم فضرب ببعض جناحه على وجوههم فأعماهم[2]، ولم يذكر طمس الأعين إلا في سورة القمر، وأسند الفعل لكل القوم وكان الفعل من بعضهم؛ لأن هذا الأمر كان مذهبهم جميعاً ، وهذا من باب التغليب .

ثم تذيل الآية بجملة أمر للتوبيخ﴿ فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ أي كذبتم فذوقوا عذابي ونذر، وقد انتقل الأسلوب من الغيبة إلى الخطاب لمواجهتهم بالعقاب، وفيه توبيخ وتقريع وغضب على فعلهم. واستعمل الذوق في الإحساس فشبه ما يدرك من أثر الضرر والألم بما يدرك من طعم المر البشع، ويأتي ذلك في قوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾[3]، ﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَآ﴾[4]، وقد شاع استخدام الذوق في البلايا والشدائد فيقولون: ذاق فلان البؤس، وذاق العذاب، فشبه ما يدرك من أثر الضرر والألم بما يدرك من طعم المر البشع حتى صار كأنها حقيقة فيها[5].

ثم كان العذاب بعد ذلك لكل القوم﴿ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴾ ، وصبحهم: أي نزل بهم في الصباح، وأكد ببكرة، والبكرة أول الصباح، وذلك أن مدة الصباح تمتد إلى ما بعد الإسفار، ولما قال:﴿ بُكْرَةً ﴾ أفاد أن العذاب كان في أول جزء منه، وفي ذلك دلالة على تعجيل العذاب لهم.

ولنتأمل كيف حدد الله موعد النجاة وأنها ﴿ بِسَحَرٍ ﴾ ، ثم حدد موعد العذاب وأنه ﴿ بُكْرَةً ﴾ ثم وصف العذاب بأنه ﴿ مُّسْتَقِرٌّ ﴾ من الفعل استقر، وهو اسم مفعول أي العذاب لا يقدر أحد على دفعه وإزالته، وهو ثابت عليهم لا يقصد به أحد غيرهم.

---

(١) التحرير والتنوير (٢٧/٢٠٥).

(٢) انظر: التفسير الكبير (٢٩/٦١).

(٣) سورة الدخان:آية (٤٩).

(٤) سورة السجدة:آية (١٤).

(٥) انظر: التصوير البياني للدكتور / د. محمد أبو موسى ص(٣١٤)٣١٥).

ثم ذيلت الآيات بما ذيلت بها سابقتها ﴿ فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴾ خطاباً لكل من أصابه العذاب، والأولى جاءت خطاباً لمن طمس الله عينه، وتختم القصة بالتذكير بالقرآن كسابقتها من القصص ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾.

وفي هذا التكرار تربية معنى التأمل والتدبر للقرآن في القلوب، وبثه في ضمائر هذه الأمة المتلقية لهذا البيان، فالنجاة لا تكون إلا به وهو ميسر لكل من تدبره، ويعد التكرار في القرآن أحد عناصر بلاغته، وقد ذكر في هذه السورة معنيان مختلفان اتحدا فأحاطا بكل جوانب المعنى ، وهو معنى الترهيب الذي أردف بالترغيب، وهما الأمران اللذان دارا عليهما القرآن بل والدعوة عامة، والقرآن حريص على تكرار الأمور التي يحتاج فيها إلى أن تغرس في النفوس وتمتلئ بها القلوب، لأن المقام مقام تربية أمة، ومثل هذه الأمور مظنة الغفلة فكررت على وجه الإيجاز لتحفظ ويظل أثرها مغروساً في القلوب.

القصة الخامسة: قصة فرعون

ثم ختمت القصص بقصة فرعون قال تعالى:﴿ وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَـٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ [1]. لم تصدر القصة (بكذبت) بل صدرت بالعطف ثم (لقد) ثم (جاء)، لأن قصته تختلف عن قصص قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط، فقد كانت رسالة موسى موجهة إلى فرعون وملئه ممن كانوا معه في دولته، لذلك قال تعالى:﴿ ءَالَ فِرْعَوْنَ ﴾ والآل أخص من القوم، فالقوم كل من يقوم الرئيس بأمرهم، أما الآل فهم كل من آل إلى الرئيس من أهله وخاصته، وكان هامان وقارون من آل فرعون، لأنهم ساروا على طريقته في التكبر والتجبر لذلك قال تعالى:﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ ﴾ [2]، وقال:﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ فَقَالُواْ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ [3]، وقال: ﴿ وَقَـٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُواْ سَـٰبِقِينَ ﴾ [4]، وقال في هذه السورة: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴾ بطريق الإيجاز والاختصار، وقال هنا: ﴿ جَآءَ ﴾ ولم يقل في غيرهم من الأمم المذكورة في السورة، لأن موسى عليه السلام كان من أمة أخرى فأرسله الله لفرعون

---

(١) سورة القمر: آية (٤١-٤٢).

(٢) سورة الزخرف: آية (٤٦).

(٣) سورة غافر: آية (٢٣-٢٤).

(٤) سورة العنكبوت: آية (٣٩).

فجاءة فهو ليس من القوم ، والمقصود بالنذر موسى وما جاء به من معجزات ، وقد يكون الجمع لتكرار الإنذار.

ثم تأتي جملة: ﴿ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَـٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ فذكرت كلمة ﴿ كَذَّبُواْ ﴾ وهي رأس الأمر في هذه السورة، ودارت عليه كل قصص الأنبياء مع أممهم، وجاءت الجملة مفصولة دون عطف؛ لأن المعنى في جملة ﴿ وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴾ يثير في النفس سؤالاً ماذا كان موقفهم؟ فجاءت جملة ﴿ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا ﴾ فكأن هذه الجملة تولدت وانبثقت من الجملة الأولى، وكأنها أصل انبثق منها فرع، فالعلاقة هنا كالعلاقة التي بين السؤال والجواب ، وهذا ما يسمى بشبه كمال الاتصال عند البلاغيين

يقول الفخر الرازي: (إن الحكاية مسوقة على سياق ماتقدم، فكأنه قال: فكيف كان عذابي ونذر، وقد كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم)[1].

والمراد بآياتنا هي الآيات التي أرسلها الله على يد موسى، وهي تسع آيات في قول أكثر المفسرين منها: خمس آيات ذكرت في الأعراف: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَـٰتٍ مُّفَصَّلَـٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ [2]،والأربع الأخرى هي انقلاب العصا حية، وظهور يده بيضاء، وسنو القحط، وانفلاق البحر[3].

وأكدت الآيات بـ﴿ كُلِّهَا ﴾ دلالة على تكذيبهم وعنادهم رغم كثرتها، ثم كانت نتيجة التكذيب بأن أخذهم أخذ عزيز مقتدر، والأخذ هو حوز الشيء وتحصيله بالقهر والقوة[4]، وهي مستعارة للعذاب والانتقام، ولم يذكر نوع الأخذ كما في القصص السابقة، استناداً على ما عرف من قصة موسى وفرعون.

وقد كان الأخذ شديداً فعبر عنه بأنه ﴿ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ ، وناهيك عن أخذ العزيز حين يغضب. والجملة بيان لنوع الأخذ، وكيف أنه كان شديداً قوياً، صادراً من عزيز مقتدر، والعزيز: هو الذي لا يغلب، والمقتدر هو الذي لا يعجز، وبهذه الجملة ختمت قصص الأنبياء ليتجه الخطاب بعده إلى كفار مكة.

ونلحظ أن القصص كلها وإن ذكرت العذاب فلكل قصة أصل وجه السياق إليه ، فقصة

---

(١) التفسير الكبير (٢٩/٦٥).

(٢) سورة الأعراف:آية (١٣٣).

(٣) انظر: التحرير والتنوير (٢٧/٢٠٩).

(٤) المفردات ص(١٢).

نوح ركزت على وصف العذاب ، وقصة ثمود وصفت العذاب وحالهم بعده ، وقصة صالح تحدثت عن مجادلته وتكذيبهم وقتلهم للآية التي أنزلها الله ثم إجمال العذاب ، أما قصة قوم لوط فقد ذكرت معاصيهم والعذاب الذي نزل بهم ، وقصة فرعون ذكرت مقدار عذاب الله بهم ، وقصة قوم ثمود أطولها لمشابهتها لقصة محمد صلي الله عليه وسلم كما ذكرنا ، وكلها تدور حول إنزال العذاب بالمكذب .

خطاب أهل مكة وتهديدهم:

وبعد قصة فرعون انتقل الأسلوب من الغيبة إلى خطاب كفار مكة لمواجهتهم، قال تعالى: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ۝٤٣ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ۝٤٤ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ۝٤٥ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ۝٤٦ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ۝٤٧ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾[1].

فالسورة كانت كلها خطاباً للرسول ﷺ، وكانت تعرّض بالمكذبين في آياتها، وفي ختام السورة انتقل الكلام من التعريض إلى التصريح، فوجه لهم الخطاب، وأقام عليهم الحجة، وجاءت الآيات كنتيجة لما ذكر من قصص الأمم السابقة المكذبة، وما لاقوه من جزاء وعقاب، وقد وُجه الخطاب لهم هنا بأسلوب الاستفهام، وذكر ثلاثة أمور كانت مستقرة في نفوسهم، وكانت سبباً في إعراضهم وهو أسلوب قوي يخاطب الغافل :

الأولى: إنكار ونفي أن يكونوا خيراً من كفار الأمم الماضية، وعبر عنهم ب﴿أُولَٰئِكُمْ﴾ ؛ لبعدهم في الزمن وبعدهم عن الرشد، والضمير في ﴿أَكُفَّارُكُمْ﴾ لأهل مكة، وهم أنفسهم الكفار، وسموا بهذه التسمية ليواجههم بما هم عليه من الكفر والخروج عن أمر الله؛ لأن معنى الكفر الستر، وهؤلاء قد ستروا عقولهم عن اتباع الهدى، وعن رؤية معجزة انشقاق القمر، وعن التأمل في حال الأمم السابقة. يقول الألوسي: (إن في ﴿أَكُفَّارُكُمْ﴾ ضرب من التجريد الذي يفيد المبالغة، فكأنه جُرد منهم كفاراً، وأضيفوا إليهم، ولم يقل (أأنتم) لأن فيه نصاً على كفرهم[2]، وكأنهم ليسوا كفاراً وهذه طريقة جيدة في الدعوة، يسند الأمر إلى غيرهم وهو صفتهم.

الأمر الثاني الذي واجههم به الله وأنكره عليهم قوله:﴿أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾، و(أم)

---

(١) سورة القمر: آية (٤٣-٤٨).

(٢) انظر: روح المعاني (٢٧/٩٢).

للإضراب الانتقالي وما يقدر بعدها من الاستفهام يأتي للإنكار[1]، فهو تبكيت لهم ولكن من وجه آخر، أي بل ألكم براءةٌ وأمنٌ مما تعملون من الكفر والمعاصي ﴿ فِي ٱلزُّبُرِ ﴾ ، أي في الكتب السماوية، بدلالة: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾[2].

ثم جاء التبكيت الثالث: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾ وها انتقل الأسلوب من الخطاب للغيبة إعراضاً عنهم، وإشارة إلى أن ذلك مما لا يتحقق أصلاً إلا باللفظ[3]، فهم يرون أنهم سينتصرون على المؤمنين، وفي قوله: ﴿جَمِيعٌ﴾ أي كل واحد منا سينتصر، وهذه ثقة ما بعدها ثقة، ولذلك جاء بعدها: ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾ ، وفي ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ ﴾ وعد من الله بهزيمة قريش بالسين التي للمستقبل القريب، وفي ﴿ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ دلالة الهزيمة النكراء، لأن تولية الأدبار كناية عن الهروب فهم يهزمون ويهربون، وقال: (يولون الدبر) بالجمع دون (يولون الأدبار) دلالة على أنهم سيكونون في التولية كنفس واحدة فلا يتخلف منهم أحد، أما (يولون الأدبار) فمعناه أن كل واحد يولي دبره، وفي هذا الجمع إشارة إلى شدة ما سيجدونه من هول[4].

وقد تحقق وعد الله في غزوة بدر، فقد هرب من بقي من المشركين، وكان هذا إخبار للغيب، ولذلك روي عن عكرمة: أنه لما نزلت هذه الآية قال عمر ﷺ: أي جمع سيهزم؟ فلما رأى رسول الله ﷺ يثبت في الدرع ويقول:﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ ﴾ عرف تأويلها[5].

ثم أردف ما سيصيبهم في الدنيا ما سيصيبهم في الآخرة فقال تعالى: ﴿ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴾ ، فهددهم بما سيلاقون في الآخرة، و﴿ بَلِ ﴾ حرف للإضراب الانتقالي لما هو أشد مما قبله، و﴿ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ ﴾ أي يوم القيامة، والموعد: اسم لوقت الوعد، والأسلوب جاء على طريق التهديد كما يقال للمجرم: غداً مصيرك؛ لتخويفه، ثم كررت ﴿ ٱلسَّاعَةُ ﴾ في الجملة المعطوفة عليها، وكأنه خبر مستقل يجري مجرى المثل ﴿ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾، كما في ﴿ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾ في بداية السورة، ومعنى ﴿ أَدْهَىٰ ﴾ اسم تفضيل

---

(١) مغني اللبيب (١/٤٤).

(٢) سورة النساء:آية (١٦٣)، الإسراء:آية (٥٥).

(٣) انظر: روح المعاني (٢٧/٩٢).

(٤) انظر: التفسير الكبير (٢٩/٦٩).

(٥) انظر: جامع البيان للطبري (٢٧/٦٣-٦٤).

من دهاه إذا أصابه بداهية[1]، وهي الأمر الشديد العظيم، وعطف عليها ﴿أَمَرُّ﴾ وهي أيضاً اسم تفضيل من مرّ مرارة، وقد استعيرت هنا للإحساس بالشدة والمكروه، فالإنسان عندما يجد ما يسوؤه كأنه يتذوق المرّ، ويكثر هذا في القرآن حين توصف الأمور المعنوية بصفات المحسوسات كما يوصف العذاب بكبير أو عظيم.

ثم بينت الآيات عذاب الكفار يوم القيامة، حيث بُنيت الآيات على الفصل للاستئناف، وبيان ما يحصل في ذلك اليوم ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾ أكد الخبر بـ(إن)، وسمى الكفار مجرمين بناءً على ما كانوا عليه في الدنيا، وهذا من المجاز المرسل والعلاقة اعتبار ما كانوا عليه، وأصل الجرم قطع الثمرة من الشجر[2]، ثم استعير لكل من اكتسب مكروهاً، ويسمي القرآن الكفار في اليوم الآخر مجرمين باعتبار ما كانوا عليه في الدنيا، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ﴾ [3]، وقال:﴿كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ﴾ [4]، وقال:﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ [5]، وفي هذه الآية المجرمون في ضلال وسعر، والضلال: هو الخسران في الدنيا، والسعر جمع سعير وهي النار الشديدة في الآخرة، و(في) ظرفية، أي أنهم متلبسون بالنار والضياع في الآخرة، ومحاطة عليهم إحاطة الظرف بالمظروف، هذه الحالة الأولى، ثم الحالة الثانية: أنهم يعذبون ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ﴾ والسحب: هو الجر، وهو في النار أشد من ملازمة المكان، لأن به يتجدد العذاب، ثم جعل السحب على وجوههم إهانة لهم[6]، وخص الوجه دون سائر الأعضاء، لأنه أكثر أعضاء الإنسان إحساساً، كما أن في إيذائه إهانة لصاحبه، ويقال لهم: ﴿ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ﴾ وحذف الفعل وذكر مقول القول لدلالة السياق عليه، والذوق كما قلنا سابقاً مستعار للإحساس، وفي أسلوب الأمر معنى الإهانة والمجازاة، و﴿سَقَرَ﴾ اسم من أسماء النار، وهي اسم علم لجهنم مشتقة من السَّقْر بسكون القاف وهي التهاب النار[7]،

---

(١) انظر: التحرير والتنوير (٢٧/ ٢١٤).

(٢) المفردات ص(٩١).

(٣) سورة المطففين:آية (٢٩).

(٤) سورة المرسلات:آية (٤٦).

(٥) سورة الزخرف:آية (٧٤).

(٦) انظر: التحرير والتنوير (٢٧/ ٢١٥).

(٧) انظر: روح المعاني للألوسي (٢٨/ ٩٣).

وذكرت لتبين شدة العذاب.

وقد كررت ﴿ فِي ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴾ مرتين في السورة، مرة على لسان قوم صالح حين أمرهم باتباعه، ومرة لبيان عذاب الكفار في الآخرة في هذه الآية، والمراد بالضلال هناك ضد الهدى، والسُّعر بمعنى الجنون من قول العرب: ناقة مسعورة، وهكذا نجد أن القرآن الكريم يعطي مجالات واسعة للألفاظ ؛ حيث تتعدد معانيها بحسب السياق الوارد فيه.

وبعد هذا الوعيد والإنذار يعلن سبحانه وتعالى سيطرته وهيمنته على الكون ومن فيه، فيقول تعالى: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ۝٤٩ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴾ وتأتي الجملة مستأنفة ومصدرة بالتوكيد، و﴿ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ مفعول به لخلقنا و ﴿ بِقَدَرٍ ﴾ جار ومجرور في حكم المفعول به الثاني لخلقنا ، وجاء التقديم للاختصاص أي اختصاصه بخلق كل شيء، وليس المقصود الإخبار بالخلق بل الإخبار بقدرته وعلمه وحكمته في الخلق، فكما أنه تعالى قادر على هؤلاء المجرمين فإن له أكثر من ذلك، فقد خلق كل شيء بقدر، و﴿ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ يشمل كل ما هو موجود من الجواهر والأعراض، وتقدير الله للأشياء على وجهين: أحدهما إعطاء القدرة، وثانيهما: بأن يجعلها على مقدار مخصوص ووجه مخصوص حسبما اقتضته الحكمة[1]، ويؤكد الآية قوله تعالى: ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴾ [2]، ووجه مناسبة الآية لسياقها أن الله هو المسيطر على ما يحدث في الأرض وفي السماء، وكل ما جرى للمكذبين كان بأمر الله، وكل ما سيجري للمكذبين الآن فهو بأمر الله وقدرته، وعلى ذلك فقد جاءت هذه الآية تذييلاً لآيات الإنذار والعقاب قبلها.

وبعد إثبات خلقه وعلمه جاءت آية إثبات قدرته فقال: ﴿ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴾ فأعقب العلم بالقدرة وهذا يأتي كثيراً في القرآن الكريم، فقد جمع هذين الأمرين في قوله تعالى:﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾ [3]، وأمر الله واحدة أي كلمة واحدة وهي (كن)، ويؤيده قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [4] أي أمره نافذ بيسر وسهولة، ذلك أن الأقوام السابقة التي كذبت لم يعرفوا وقت وقوع العذاب فلما جاءهم كان بغتة، وفي الآية تهديد وتحذير لكفار مكة من أن يأخذهم العذاب بغتة كلمح البصر، واللمح النظر

---

(١) المفردات ص(٣٩٥).

(٢) سورة الرعد:آية (٨).

٣) سورة الأعراف:آية (٥٤).

(٤) سورة يس:آية (٨٢).

السريع، وإخلاس النظر يقال: لمح البصر ولمح البرق[1].

ولما كان لمح البصر أسرع فقد شبه نفوذ أمره وتحققه بسرعة لمح البصر، كما شبهت سرعة حلول يوم القيامة بلمح البصر في قوله تعالى:﴿ وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُ﴾[2]، وهذا التشبيه من أبلغ ما جاء به القرآن، فهل يتصور وجود مدة أقل من لمح البصر.

وتأمل كيف أكدت الآية الأولى (بإن) وكيف أكدت هنا بأسلوب القصر، وهو يفيد تأكيد الكلام، والمبالغة في توضيح الأحكام، لأن القصر إثبات شيء لشيء ونفيه عن غيره، والخبر بالنفي والاستثناء لا يكون إلا لأمر ينكره المخاطب ويشك فيه، أو يكون في المعاني التي تحتاج إلى فضل تقرير وتوكيد، ولا تأتي هذه الأداة إلا حيث التعبير الشديد والنبرة العالية، والكفار كانوا ينكرون معجزة انشقاق القمر وينكرون الساعة، فجاء التعبير عن قدرته بهذا الأسلوب الشديد.

ثم بين تعالى أن أمره النافذ قد أهلك السابقين فقال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَآ أَشۡيَاعَكُمۡ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ۝ وَكُلُّ شَيۡءٖ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ ۝ وَكُلُّ صَغِيرٖ وَكَبِيرٖ مُّسۡتَطَرٞ ۝ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَهَرٖ ۝ فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۭ﴾، فانتقل الكلام إلى خطاب المشركين تهديداً مؤكداً باللام وقد، و﴿ أَشۡيَاعَكُمۡ ﴾ أي أمثالكم في الكفر، ثم فرع عليها الاستفهام ﴿ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾ أي اذكروا واتعظوا، وجاء الاستفهام ليتفكروا وليعودوا إلى أنفسهم وينظروا ماذا فُعل بالسابقين المكذبين ليتم اتعاظهم.

وجملة ﴿ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ﴾ تكررت ست مرات في السورة، أربع مرات مع الاتعاظ بالقرآن، ومرتين في سياق آيات أخرى وفي نهاية قصة نوح ﴿ وَلَقَد تَّرَكۡنَٰهَآ ءَايَةٗ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾ ومدكر أصلها مذتكر أبدلت التاء دالاً مهملة، ثم أبدلت المعجمة مهملة لمقاربتها، وقُرئ (مدتكر) على الأصل[3]، ويختلف معنى الاستفهام حين تأتي وحدها، وحين ترتبط بتيسير القرآن، ذلك أنها حين ترتبط بتيسير القرآن فإنها تحث الهمم للاتعاظ والتذكر والتدبر والفهم للقرآن، وحين تنفك من تيسير القرآن يكون معناها الاتعاظ والاعتبار بما وقع للأمم السابقة الذين كذبوا الرسل.

---

(١) انظر: المفردات (ص٤٥٤).

(٢) سورة النحل: آية (٧٧).

(٣) البحر المحيط (٨/ ١٧٨).

ثم يدل سبحانه على قدرته في رصد أعمال على هؤلاء الكفار فقال: ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ ۝٥٢ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴾ فكل شيء فعلوه مقيد في الزبر، و(الزبر) جمع زبور وهو الكتاب مشتق من الزبر وهي الكتابة، وعبر عن هذا الكتاب بهذا اللفظ هنا، وهو في مواضع أخرى كتاب:﴿ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ﴾[1]، ﴿ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴾[2]، وجاءت (الزبر) دون الكتابة لرعاية فواصل السورة التي قامت على روي الراء في كل آياتها.

وتأتي الآية بعدها لتشرح مقدار هذه الكتابة وكيفيتها معطوفة بالواو، فكل ما صغر وكبر سطر في هذا الكتاب، والصغير مستعار للشيء الحقير الذي يستهان بفعله، والكبير ما كان عظيماً من الذنوب قال تعالى:﴿ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ﴾ ، وقد قدمت الصغيرة على الكبيرة، للدلالة على أن الكتبة لا يفوتها شيئاً مما يعمله الإنسان، فالصغيرة وإن كانت حقيرة تكتب ولها أهميتها؛ لأن عادة الإنسان ألا يهتم بالصغائر وقد ينساها، لكنها عند الله ذات مكانة وتكتب قبل الكبيرة، و﴿ مُّسْتَطَرٌ ﴾ أي مكتوب وهي اسم مفعول من الفعل استطر، وفيها معنى الدقة والعناية بأمر هذا المكتوب.

*** ذكر أحوال المؤمنين:**

جرياً على طريقة القرآن في تقابل المعاني فقد ذكر تعالى في هذه السورة أحوال المؤمنين بعد أن ذكر أحوال المجرمين وحالهم، وإن كانت السورة كلها في ذكر أحوال الكفار السابقين وكفار مكة، فقد ختمت السورة بذكر أحوال المؤمنين في آيتين موجزتين، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝٥٤ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾[3].

ومن سمات القرآن الكريم أنه يعقب النذارة بالبشارة، وأحوال أهل الجنة بعد أحوال أهل النار أو العكس حسب سياق الآيات والسورة التي جاءت فيها هذه الآيات، وهذا هو التقابل أو المقابلة، وهو فن بلاغي يكثر في الكتاب والسنة، فترى الشيء وضده، وبه تتمايز الأشياء ، فلا نعرف حقيقة الإيمان إلا إذا أدركنا حقيقة الكفر، ونخوض في قلب الظلمة

---

(١) سورة الكهف:آية (٤٩).

(٢) سورة الإسراء:آية (١٣).

(٣) سورة القمر:آية (٥٤-٥٥).

لندرك قيمة النور. وهذا الفن لا يخص لغة دون لغة، إنما هو مغروس في النفس الإنسانية وفي الكون من حولنا، فالإنسان تتقلب حياته بين المتناقضات من فرح وحزن، وغنى وفقر، وحب وكره، وكذلك الكون من حولنا يعبق بالمتناقضات فهذا الليل أمامه نهار، وهذه شمس وراءها قمر وهكذا، وكل صورة تساعد على بيان الصورة الأخرى.

ونلاحظ التقابل بين ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴾ وما قبلها ﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴾ ، فالبناء واحد بين الجملتين، فأكدت (بإن) وهنا ﴿ جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴾ ، وهناك ﴿ ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴾ ، و(في) الظرفية تعني إن المتقين متلبسين بالجنات تلبس الظرف بالمظروف، لتغمرهم النعمة من كل مكان، كما أن الكافرين واقعين متلبسين في الضلال والسعير.

كما تتفق الجملتان المتقابلتان في الوزن وفي عدد الحروف أيضاً، فهناك واحد وعشرون حرفاً وهنا إحدى وعشرون حرفاً، وجمعت ﴿ جَنَّٰتٍ ﴾ ؛ لدلالة كثرة النعيم، وأنها نعم كثيرة لا تعد ولا تحصى، ثم وحد ﴿ وَنَهَرٍ ﴾ للإشارة إلى أن سعادة الإنسان أن يكون في الجنة عند نهر، ولا يكون منغمساً فيه، فنهر واحد يكفيه ليتنعم به وتستلذ عينه به، ونكر لعظمته، وقد يؤول بأن المراد: (في جنات وعند نهر) على سبيل المجاورة كقولنا: تقلدت سيفاً ورمحاً، علفتها تبناً وماءً بارداً، فجمع بين التبن والماء للمجاورة[1]، وجمع السعر للكفار لزيادة العذاب وأنه سعير فوق سعير.

ثم حدد مكان تلك الجنات فقال تعالى: ﴿ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ ﴾ وهي بدل: فهم في جنات في مقعد صدق، موضع مختار لهم، والمقعد مكان القعود، ثم وصف بأنه صدق على سبيل المجاز العقلي، والعلاقة المكانية ، والمراد مقعد فيه أهل صدق، ونتأمل كيف يصير المقعد صدقاً حين يكون أهله كذلك، والصدق مطابقة الخبر للواقع، ثم استعملت صفة لبيان كمال حال الشيء، فنقول رجل صدق، ولسان صدق، ومبوأ صدق أي تمام الصدق، وفي ذلك دلالة على تمكن الصفة من الموصوف.

و﴿ مَقْعَدِ ﴾ تدل على اللبث الطويل، وهي غير المجلس أي أن المؤمنين مخلدين في الجنة، ثم إن هؤلاء المؤمنين ﴿ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ ، والعندية تعني التفضيل والاصطفاء والقرب، وهاتان الكلمتان صيغتا مبالغة ملك وقادر، وفي تنكيرهما إشارة إلى أن ملكه وقدرته مما تدرك الأفهام كنهها وليس لها مدى[2]، وبهذا انتهت السورة بذكر اسمين من أسمائه

---

(١) التفسير الكبير (٢٩/٧٩).

(٢) انظر: روح المعاني (٢٧/٩٦).

سبحانه وتعالى التي تعني السيطرة والقدرة والسلطان على كل مافي الكون.

وكما أنه أنزل عذابه بالكفار ملكاً وقدرة، فهو ينزل رحمته وحبه للمؤمنين، ويقربهم منه أيضاً ملكاً وقدرة وحباً، وبذلك تظهر المناسبة بين الآيات في آخر السورة والموضوع الذي دارت عليه السورة.

النسق الصوتي في السورة:

يتحقق النسق الصوتي في القرآن حين تتحد أواخر الكلمات في الآية فتؤدي جرساً تميز به القرآن عن غيره، وهي ما تسمى بالفواصل، واهتم العلماء قديماً بفاصلة القرآن، فقد تناولها بالحديث علماء الإعجاز واللغة والمفسرون وعلماء علوم القرآن والبلاغيون وكلٌ أدلى فيها بدلوه.

وكان رسول الله ﷺ يقف عند نهاية الآية؛ ليعلم رؤوس الآي.

ويتجلى النغم الصوتي المتميز بأبهى صورة و مظاهره في هذه السورة؛ حيث تختم آياتها بالراء مردداً بين طرف اللسان وأول اللثة مما يلي الأسنان، ويتحقق فيها معنى القرع، واتحدت الفاصلة مع اسم السورة (القمر)، كما أن الآيات تتميز بالقصر والسرعة والتتابع في سرد الجمل، وهذا يتناسب مع قيام السورة على الإيجاز ، كما أن الفاصلة لا تنقطع عند معنى معين ، بل تستمر في كل آيات السورة على نمط واحد من الصوت .

ويتحقق هذا النغم في مجيء الكسرة قبل حرف الروي الموقوف عليه في أكثر آيات السورة مما يؤدي إلى ترقيق الراء الذي يعطي معنى النهاية والانقطاع

فالمكسور ما قبلها:﴿ مُّسْتَمِرٌّ، مُّسْتَقِرٌّ، مُّنتَشِرٌ، وَٱزْدُجِرَ، فَٱنتَصِرْ، مُّنْهَمِرٍ، قُدِرَ، كُفِرَ، مُّدَّكِرٍ، مُّنقَعِرٍ، أَشِرٌ، وَٱصْطَبِرْ، ٱلْمُحْتَظِرِ، مُّقْتَدِرٍ ﴾.

أو مجيء الكلمات على وزن واحد مثل :﴿ نُّكُرٍ، وَدُسُرٍ وَنُذُرِ، وَسُعُرٍ، ٱلزُّبُرِ﴾ . وأكثر الفواصل بنيت على الصفة، فجاءت صفة لموصوف، وهذا يقع في خمس عشرة آية:

﴿ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ، أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ، شَيْءٍ نُّكُرٍ، جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ، يَوْمٌ عَسِرٌ، بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ، نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ، نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ، كَذَّابٌ أَشِرٌ، ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ، شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ، عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ، عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ، جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ، مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾.

ويساويه بناء الفاصلة على العطف، وذلك في خمس عشرة آية أيضاً:﴿ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ، مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ، أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ، عَذَابِى وَنُذُرِ ﴾، في ست آيات: ﴿ ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴾ ، في آيتين:

﴿ فَٱرۡتَقِبۡهُمۡ وَٱصۡطَبِرۡ ، فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ، أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ ، جَنَّٰتٖ وَنَهَرٖ ﴾ .

كما جاءت مجرورة في: ﴿ مِن مُّدَّكِرٖ ﴾ في ست آيات. ﴿ بِٱلنُّذُرِ ﴾ في ثلاث آيات، ﴿ بِسَحَرٖ ، ﴿ فِي ٱلزُّبُرِ (في آيتين)، بِقَدَرٖ ، بِٱلۡبَصَرِ ﴾.

وهكذا تتنوع المظاهر الأسلوبية واللغوية، ليتم التناسق والتناسب الصوتي بين الآيات.

* * *

الخاتمة (نتائج الدراسة):

وبعد هذه الرحلة الماتعة مع سورة القمر نستطيع أن نقول إن للسورة سمات اختصت بها، وهي:

١- إن مقصد السورة هو الحديث عن تكذيب أهل مكة لمعجزة انشقاق القمر وتهديدهم، وذلك في أول السورة وآخرها، وبينهما ذكر لأحوال الأمم التي كذبت.

٢- ذكرت السورة قصص خمس من الأقوام المكذبة: قوم نوح، وعاد، وثمود، وقوم لوط، وآل فرعون .

٣- كانت كلمة (كذب) هي قطب الرحى التي قامت عليها السورة، ولذلك بدئت بها عند ذكر كل قصة إلا قصة فرعون.

٤- قامت السورة على روي واحد وهو حرف الراء من أولها إلى آخرها، وهي أطول السور في اتحاد الروي.

٥- قامت السورة على الإيجاز ، وقصر الآيات، والسرعة والتحدر والقرع، وذلك مناسب لموضوعها.

٦- تكررت بعض الظواهر الأسلوبية أربع مرات﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ ، و ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ ست مرات، أربع مع تيسير القرآن، واثنان مع سياق التكذيب، و ذكرت آية ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ أربع مرات بعد كل قصة إلا قصة آل فرعون.

٧- تسود حركة الكسر في فواصلها مما أدى إلى إسقاط في الحركة التي أدت إلى التحدر والشدة.

٨- كثرة أسلوب الاستفهام في السورة، لأن فيه بعث للتفكر في هذا الأمر، وإحالته إلى النفس.

٩- في السورة أربع تشبيهات: الأول: تشبيه الكفار يوم القيامة بالجراد المنتشر، والثاني: تشبيه مصرع قوم عاد بأعجاز نخل خاوية، والثالث:تشبيه مصرع قوم صالح بهشيم المحتظر، وأخيراً: تشبيه وقوع أمر الله بلمح البصر،وهذه العناصر مما يقع تحت نظر الإنسان في الكون.

وفي الختام أسأل الله العون والسداد والإصابة.

والحمد لله الذي تتم بنعته الصالحات.

فهرس المراجع:

١- **إرشاد العقل السليم:** أبو السعود محمد العمادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.

٢- **أسرار التكرار في القرآن:** محمود بن حمزة الكرماني، طباعة دار إحياء التراث.

٣- **إعجاز القرآن:** أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعارف.

٤- **البحر المحيط:** محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي، وبهامشه تفسير النهر الماد من البحر لأبي حيان، طباعة دار الفكر، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.

٥- **التحرير والتنوير:** الإمام محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر.

٦- **التصوير البياني:** د. محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الثانية.

٧- **التفسير الكبير:** فخر الدين بن حسين الرازي، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.

٨- **جامع البيان عن تأويل آي القرآن:** أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، دار الفكر، ١٤٠٥هـ-١٩٨٤م.

٩- **خصائص التراكيب:** د.محمد أبو موسى، مكتبة وهبة ، القاهرة، الطبعة الثانية .

١٠- دلائل الإعجاز: الإمام عبد القاهر الجرجاني، تحقيق: محمود محمد شاكر، مطبعة مكتبة الخانجي، القاهرة.

١١- **دلالات التراكيب:** د.محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ-١٩٨٧م.

١٢- **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني،** أبو الفضل شهاب الدين محمود الألوسي، دار إحياء التراث العربي.

١٣- **لسان العرب:** أبو الفضل جمال الدين بن منظور، دار صادر، بيروت.

١٤- **مدخل إلى كتابي عبد القاهر الجرجاني:** د.محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ-١٩٩٨م.

١٥- **معجم البلاغة العربية** : د / بدوي طبانة - الطبعة الثالثة ، دار المنارة -جده - دار الرفاعي ـ الرياض

١٦- **مغني اللبيب**: الإمام أبي محمد عبد الله بن هشام الأنصاري، تحقيق: محمد محي الدين عبدالحميد، مطبعة المدني، القاهرة.
١٧- **ملاك التأويل**: أحمد بن الزبير الغرناطي، تحقيق: د. محمود كامل أحمد، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.

* * *